سلسلة دراسات نقد الاستشراق المعاصر

٢

رُهابُ المَهْدَوِيَّةِ في الاِسْتِشْرَاقِ المُعَاصِرِ

قَاسِم شُعَيب

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

رُهَابُ المَهدَوِيَّةِ فِي الاِستِشرَاقِ المُعَاصِرِ

-قَاسِم شُعَيب-

◆ رقم الطبعة: الأولى
◆ تاريخ الطبعة: ٢٠٢٥ م - ١٤٤٦هـ
◆ مكان الطبعة: بيروت - بغداد

الآراء المطروحة لا تعبر عن رأي المركز بالضرورة

© جميع الحقوق محفوظة للمركز

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

Baratha Center for Studies and Research
www.barathacenter.com
barathacenter@gmail.com

رُهَابُ المَهْدَوِيَّة
في الاستشراق المعاصر

قاسم شعيب

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

سلسلة دراسات نقد الاستشراق المعاصر
٢

سلسلة دراسات نقد الاستشراق المعاصر

طالما كان الاستشراق قرين الاحتلال، فالعلم العاري من الضوابط الأخلاقية والإيمانية وحده القادر على تشخيص مواطن الضعف في الأمم المستهدفة، وتحليل أفكارها ورصد ظواهرها الاجتماعية، واليوم تقوم بنفس الدور مراكز التفكُّر والدراسات، فقد أصبحت مراكز الدراسات والجامعات والكراسي الأكاديمية أداة فعّالة فيما يسمى بـ «الاستشراق المعاصر»، وكما كانت دائمًا، أداة فعّالة في الاحتلال الفكري والإرهاب النفسي. لذلك، وفي سياق المواجهة في الحرب الثقافية، قررنا في «مركز براثا للدراسات والبحوث» ومن خلال (سلسلة نقد الاستشراق المعاصر) أن نسلّط الضوءَ على المنظومة الجديدة للاستشراق، والتي تطرح نفسها من خلال منهجياتٍ ومقارباتٍ ومصطلحاتٍ جديدة، لكنها تخدم نفس الأهداف القديمة، وهو استهدافٌ الحضارةَ الإسلامية في عمودها الفقري، وهو منظومتها القيمية والمعرفية.

وبالرغم من زعم كثيرٍ من الباحثين العرب والمسلمين والغربيين أن الاستشراق قد مات، إلا أن من يدخلُ في أعماق ما يدور في العصر الحاضر في أوساط أقسام (دراسات الشرق الأوسط) في الجامعات الغربية، والمؤتمرات حول (قضايا العالم الإسلامي)، وورش العمل، وما يُعقد من ندوات ومؤتمرات وما يتم من برامج وتخطيط. يدرك أن ما يدور في العالم الغربي من اهتمامٍ بالإسلام إنما هو استمرار لبعض أهداف الاستشراق القديمة مع اختلاف في الوسائل والمناهج، فعسى أن تكون هذه السلسلة مشجعةً لنا في العالم الإسلامي أن نعطي البحث العلمي بعض الأهمية، فليس التقدم مرتبطًا فقط بالطب والهندسة والتقنية، ولكن العلوم الاجتماعية أيضًا تستحق أن ينفق عليها كما ينفق في المجالات الأخرى.

مُقَدِمَّة

لم تكـن الأطروحـة المهدوية بعيدة عن اهتمام الاسـتشراق بقسـميه التقليـدي والجديد، بل كانـت حاضرةً بقـوةٍ باعتبارها جزءًا أساسـيًّا من المنظومة الإسلامية، وبسبب ما تُحيل إليه في علم نهاية الزمان.

لم يقبل الاستشراق في مراحله المختلفة بالعقيدة المهدوية، تمامًا كما لم يقبل بشيء من معتقدات الإسـلام. واعتبر البشـارةَ المهدويةَ أسـطورة واردة من الديانات القديمة، ولا تزيد عن كونها تعبيرًا عن أزماتٍ سياسـيةٍ واجتماعيةٍ عاشـها الشـيعة بشكل خاص بسـبب ما تعرضوا من اضطهاد. فهي -بالنسـبة إليه- مجرد آليةٍ للحفاظ على توازن المجتمعات في أوقات المحـن، أو هـي -عنـده- ذات عمـقٍ اجتماعـيّ وثقافيّ مغمـس بالأمل والانتظار في المجتمعات التي تعاني الاستبداد والظلم.

لم يكن بإمكان الاسـتشراق قراءة الإسلام بطريقة إيجابيَّة في شيء من أطروحاته، فهو يَتموضَع في سياق الصراع الحضاري الذي يخوضه الغرب مع العالم الشرقي من أجل النفوذ والهيمنة، وهو شكل جديد يخضع لفكرة التميُّز الغربي ويكرس جهوده لاستكشـاف الـشرق وإعادة إنتاج المعارف

الإسلامية على طريقته.

ويرتبط الاستشراق بتلك الدراسات التي أنجزها باحثون غربيون حول الإسلام والمسلمين في المجالات العلمية والمعرفية والاعتقادية والثقافية والتاريخية والسياسية كافة. وقد ظهر بشكل تدريجي في أوروبا منذ بداية الرحلات الاستكشافية الأوروبية في العالم الإسلامي قبل أن يتطور إلى مجال أكاديمي يختص فيه أساتذة الجامعات والباحثون من مختلف الاختصاصات المرتبطة بذلك. ولعل بريطانيا هي أول من بلور درسات أكاديمية استشراقية إبان التمدّد الاستعماري في بلاد الشرق.

لم يبدأ الاستشراق في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، بل كانت إرهاصاته سابقة لذلك من خلال الاحتكاك الأول للأوروبيين مع العالم الشرقي، زمن حكم البابوات وبداية الحروب الصليبية. وفي القرن السابع عشر أصبحت لندن وباريس أهمَّ المراكز لدراسة الشرق، قبل أن تظهر معاهد متخصصة في هذا النوع من المعرفة.

ويبدو لنا أنَّ ردة فعل الاستشراق الحادة ضد الإسلام والعقيدة المهدوية بشكلٍ خاص، عكست رُهابًا حقيقيًّا وخوفًا متواصلاً على مستقبل الهيمنة الحضارية الغربية، بعد أن اطلع المستشرقون على البشارات الكثيرة التي أطلقتها النصوص القرآنية والروائية، بخصوص مستقبل الإسلام والمؤمنين به.

تمثّل الأطروحة المهدوية قطب الرَّحَى داخل الإسلام. فهي الحلقة

الأخيرة في سلسلة الإمامة المؤتمَنة على التراث النبوي. وإذا كان الإسلام في تعاليمه ومقولاته وأحكامه تعرَّض للإقصاء بشكلٍ مبكر، فإنَّ ذلك كله لم يضِع، بل تم حفظه من خلال سلسلة الأئمة؛ والإمام المهدي هو المُخوَّل بإظهار ذلك كله ومباشرة حركة إصلاحية واسعة وغير مسبوقة بعد تحقيق النجاح في إزاحة القوى المهيمنة وإحداث تغيُّرات جذرية في البنية السياسية التي توجه بوصلة الدولة والتمظهرات الثقافية التي تحرك حياة الناس، فالأطروحة المهدوية تتضمن بعدين أساسيين: الأول يتعلق بالجانب العَقَدي، حيث إنَّ الإيمان بالمهدي جزء من العقيدة الإسلامية. والثاني يتعلق بالبعد الاجتماعي، حيث تمثل فكرة الانتظار في معناه الإيجابي، دافعًا لتطوير الذات والإصلاح العام.

والتَّأثير الاستشراقي -في دراسته للمسألة المهدوية- لم يكن سلبيا بالمطلق، بسبب رؤيته المادية التي يريد إسقاطها على المعتقدات الإسلامية وإنكاره لكل ما هو غيبيّ، وادعائه بأنَّ المهدويَّةَ بلا أصالة في الإسلام نفسه، بل كان له جانب إيجابي يتعلق بفتح آفاقٍ جديدةٍ لفهم هذه الأُطروحة من زوايا تاريخية وسوسيولوجية مختلفة، بحيث يمكن إعادة قراءة المسألة المهدوية بطريقةٍ أكثر عقلانية وعلمية من خلال الاستفادة من أدوات التحليل النَّقدي، وهو ما يعني المزج بين العمق العقائدي والفَهم القِيَمي المُحَيَّن للنصوص الإسلامية.

وهذا كله من شأنه إدراك التأثير المتبادل بين الأطروحة المهدوية

والنظريــات الاجتماعية الحديثة، وتســهيل نقد التَحيُّزات في الدراســات الاســتشراقية وإبراز الأبعاد الإنســانية والكونية لهــذه الأُطروحة في مقابل القراءات الاستشراقية الاختزالية.

قاسم شعيب

تونُس: ٢٠٢٥/١/٥

الفَصْلُ الأَوَّلُ:
فِي مَفْهُومِ الإِمَامَةِ

ليس الاستشراق شيئًا آخر غير الرؤية الغربية للثقافة الإسلامية خاصةً والشرقية بشكلٍ عام، من أجل إعادة إنتاجه وتحويله إلى مَتن يستخدمه الباحث الذي يتبنى الثقافة الغربية أو الذي يريد دراسة الإسلام أو الاطلاع عليه من خلالها. ومن المتوَقع أن يقدم الاستشراق -على هذا النحو- رؤيةً نمطيةً تتمركز حول إنكار نبوةِ خاتمِ الأنبياء، صلى الله عليه وآله، ونفي أصالة عقائد الإسلام وتشريعاته وقَيَمه، بما في ذلك مسألة المهدوية، ولا تدرك العمق الذاتي للثقافة الإسلامية وتميُّزها بسبب الخلفية الدينية والأيديولوجية للاستشراق.

وإذا كان التشيُّع يمثل جزءًا أساسيًّا من الثقافة الإسلامية باعتباره الخط الذي يمثل الامتداد الطبيعي للإسلام، فإنَّ الاستشراق لم يجد بُدًّا من تناول مقولاته ومفاهيمه. وكان من المتوقَع أن تأتي أحكامه سلبية وبعيدة عن الإنصاف تمامًا كما كان موقفه من الإسلام.

لم يكن التشيع استثناءً من الاهتمام الاستشراقي، بسبب ما يمثّله. وكان من الطبيعي أن يتناول التشيُّعَ في معتقداته وتاريخه ومعارفه ومساراته. وفي القلب منه، مسائل الإمامة والمهدوية. لا يكتمل الحديثُ عن المهدوية دون إحاطة بمفهوم الإمامة. وهو ما حاول الاستشراق فعله، لكنَّه فشل في

النفـاذ إلى عمق هذا المفهوم. فجـاءت أحكامه غير منصفة، بل كانت في حالات كثيرة صدامية ومتشددة.

لم يكن مُنتظَرًا من المستشرقين تقريظ التشيُّع، رغم أنَّ بعضهم فعل ذلك في لحظات اعترافٍ بالحقيقة. وكان من المتوقع الهجوم عليه بعد أن أخذوا منه ما يمكن أخذه من أفكار وأنظمة وقوانين. فالفيلسـوف والمفكر والعالِم في الغرب لا يعترف غالبًا بمصادر أفكاره ومعارفه، وينسبها إلى نفسه.

يَفهـم الاسـتشراق أنَّ التشـيُّع يمثل عقل الإسـلام وروحـه، وكان من الضروري بالنسبة إليه تركيز الضربات عليه. وهذا ما يفسر انحياز الاستشراق إلى جانب خصوم الشيعة عند المقارنة بينهم، وإلى جانب السلطة القائمة عند الحديث عن المعارضة التي كان الشيعة يمثّلون المحور فيها.

فرَضَ دخـول أقوام من خلفيـات دينيَّة وثقافيَّة متعددة تحديًّا بالنسـبة للإسـلام. فقد اسـتولى الأُمويُّون على الحكم وعملوا على تصفية الشيعة وتزوير السـنة وأخـذ معاني القرآن إلى أماكن أخـرى لم يقصدها. وعندما جاء العباسـيون ازدهـرت ثقافـاتٌ واردةٌ وانتـشرت الفلسـفات اليونانية والمعتقدات الدينية القديمة، وهو ما جعل الأئمة عليهم السلام يقفون في مواجهتها بقوةٍ لإعلان المعتقدات والأحكام والتعاليم الإسلامية.

تعتمد الدراسات الاسـتشراقية في فهمها للإسلام على مصادر خصوم الشيعة. ونادرًا ما اعتمدت مدونات الشيعة. وهي لذلك كانت تنظر للتشيع بعيون خصومه. ارتكزت تلك الدراسات على ما كتبه المتأخرون عن التشيُّع

رغــم أنَّهم لم يبرهنوا على معرفةٍ عميقةٍ وحقيقيةٍ به. وفي كثير من الأحيان تبنَّت مواقف مسبقة بحثَت لها عن مبررات في المدونات المختلفة.

كَتب المســتشرقون عن الإســلام وتاريخه ومعارفــه وتعاليمه وقوانينه، عــلى مدى قرن ونصــف -أي منذ أوائل القرن التاســع عشر حتى منتصف القــرن العشرين- ســتين ألف كتاب. ثــم كتبوا آلاف الكتــب الأخرى بعد ذلــك. ورغم هذا الكــم الهائل من الكتب، إلاَّ أنَّ نصيب الشــيعة لم يكن كبيراً. والنتائج التي تم التوصل إليها تكاد تكون متشــابهة بخصوص النبوة والوحي والسيرة والإمامة والحكم والمنظومة التشريعية.

المَبحَثُ الأَوَّلُ: مَاهِيَّةُ التَّشَيُّعِ

أراد الاســتشراق الغــربي جَلْــدَ التشــيُّع للإيحــاء بأنَّ فكــره غريبٌ عن الإســلام. وقليلون هم المستشرقون الذين اعترفوا بمجهولية التشيع لديهم، وهي حالة (هنري كوربان) (١٩٠٣-١٩٧٨) الذي يؤكد أنَّ الإسلام الشيعي ليس مجهولاً جهلاً كبيراً في الغرب فحسب، ولكنَّه كثيراً ما يصطَّدم -ولهذا السبب نفسه- تارةً بسوء فهم خطير يتعلق بجوهره هو نفسه، وطوراً بتقييمات وتنافــرات أليمة أخرى. وهو في ذلك يتفق مــع (لورانس براون) الذي قال إنَّه لم يصادف في أيَّةِ لغةٍ من اللغات الأوروبية كتاباً يوثّق المذهب الشيعي

ويشرحه[١]. وهذا الجهل بالإسلام الشيعي ليس غريبًا بالنسبة للاستشراق، فهو قائمٌ بقوةٍ عند أهل السنة، الذين يأخذ عنهم الاستشراق غالبًا، والذين يُفترض أنَّهم قريبون من الشيعة اجتماعيًّا وجغرافيًّا وثقافيًّا.

أَوَّلًا: جُذُورُ التَّشَيُّعِ

يُرجِع المستشرق الألماني (يوليوس فلهاوزن) (١٨٤٤-١٩١٨) ظهور التشيُّع إلى أيام الفتنة التي فجرها مقتل عثمان بن عفان. وهذا هو رأي أهل السنة. فهو لا يختلف في زاوية الرؤية التي ينظر منها إلى الشيعة. ويتأكد ذلك عندما يجعل شخصية اليهودي المفترَض (عبد الله بن سبأ) المؤسس الفعلي للتشيع من أجل فك الارتباط بين التشيُّع والإمام علي عليه السلام، وتحويل تعاليم الأئمة اللاحقين من أهل البيت إلى اختراعات شيعية.

يقول هذا المستشرق: «السَّبئية تُنسب إلى (عبد الله بن سبأ) وهو يهودي من صنعاء، بَيْد أنَّه يلوح أنَّ مذهب الشيعة -الذي ينُسب إلى عبد الله بن سبأ أنه مؤسسه- إنما يرجع إلى اليهود أقرب من أن يرجع إلى الإيرانيين»[٢].

وهذا ما يتباهى مستشرقون آخرون مثل الفرنسي (هنري ماسيه) (١٨٨٦-١٩٦٩) الذي يدَّعي أنَّ «عناصر المذهب الديني الشيعي وخصوصًا قاعدته

١ - بطروشوفسكي: الإسلام في إيران، ص٥٣٠.
٢ - بطروشوفسكي: الإسلام في إيران، ص٢٤٣.

الثيوقراطية والاعتقاد برجعة الإمام الغائب، يبدو أنها يهودية مسيحية»[١]. كان (ابن سبأ) الذي يُرجعون ظهور التشيُّع إليه يهوديًّا من اليمن. وهذا ما جعل (ماسيه) يدعي أنَّ الجانب السياسي عند الشيعة عربي، والجانب الديني يهودي ومسيحي. وينتهي إلى القول بأنَّ «المسلمين الأُصلاء هم أهل السنة أو السنيون»[٢]. وهو مديح يتضمن نَقيضه.

نسب المستشرقون لعبد الله بن سبأ تأليه الإمام علي والقول بالوصية والرجعة في آخر الزمان. وجعلوه من ناحية أخرى مؤسّسًا للتشيُّع، وهذا يعني نسبة الغلو للشيعة الإمامية. وقد تبنّى أكثر كُتَّاب أهل السنّة ورجال الدين لديهم رواية (سيف بن عمر) التي انفرد بها ونقلها (الطبري)[٣]. غير أنَّ (سيف بن عمر التميمي) (٩٠ هـ - ١٨٠ هـ) «كذّاب» في تقدير الرجاليين السُّنة ولا يصح الأخذ برواياته[٤]. وهذا يعني أنَّ المصادر السنية لا تُثبت وجود ابن سبأ.

لكن في المقابل، لدينا روايتان صحيحتان عن بعض الأئمة عليهم السَّلام تتحدث عن رجل يحمل اسم (عبد الله بن سبأ) وتتبرأ منه. فإذا كان هذا

---

١ - هنري ماسيه: الإسلام، ص١٩١.

٢ - هنري ماسيه: الإسلام، ص١١٨.

٣ - الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ص٣٤٠..

٤ - ضعفه النسائي والحاكم والدارقطني وأبو حاتم الرازي وابن عدي الجرجاني والفسوي. انظر: أبو زرعة الرازي: كتاب الضعفاء، ص٣٢٠. ابن أبي حاتم: كتاب الجرح والتعديل، ص٤٧٩. ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب، ج٤، ص٢٩٦. ابن عدي الجرجاني: الكامل في ضعفاء الرجال، ص٥٠٨.

الشـخص هو نفسه (ابن سبأ) الذي نقل خبره (سـيف بن عمر) وله فعلاً وجودٌ تاريخيٌّ ولديه معتقدات مغالية، فإنَّ الأئمة قد تبرأوا منه ولا يُمكن نسبة معتقداته إليهـم[١]. لا تثبت قصة (عبد الله بن سـبأ) في المصادر السـنية. وفي المصادر الشيعية تم التبرؤ من غلوّ الغُلاة ومن (عبد الله بن سبأ) نفسه، إذا فرضنا وجوده.

يتناقـض (فلهاوزن) مع نفسـه حـين يزعُم مرةً أخرى أنَّ «الشـيعة فرقة فارسـية، وفيها يظهر ذلـك الفرق بين الجنس العـربي الذي يحب الحرية والجنس الفارسي الذي اعتاد الخضوع كالعبيد.. كان مبدأ انتخاب خليفة للنبـي أمـرا غير معهـود ولا مفهوم لأنَّهـم لم يعرفوا غير مبـدأ الوراثة في الحكم ولهذا اعتقدوا أنَّه مادام محمد لم يترك ولدًا يرثه فإنَّ عليًّا هو الذي يجب أن يكون خليفة»[٢].

---

١ - لاحظ ما رواه الكشي بسـنده "عن أبان بن عثمان، قال: سـمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لعن الله عبد الله بن سبأ، إنّه ادّعى الربوبية في أمير المؤمنين عليه السلام، وكان والله أمير المؤمنين عليه السلام عبدًا لله طائعًا، الويل لمن كذب علينا، وإن قومًا يقولون فينا ما لا نقوله في أنفسـنا، نبرأ إلى الله منهم، نبرأ إلى الله منهم". اختيار معرفة الرجـال، ج١، ص٣٢٤. وروى الكشي أيضًـا عن أبي حمزة الثمالي، قال: قال علي بن الحسـين عليه السـلام: "لعن الله من كذب علينا، إنيّ ذكرت عبد الله بن سـبأ فقامت كل شعرة في جسدي، لقد ادّعى أمرًا عظيمًا، ماله لعنه الله، كان علي عليه السلام والله عبـدًا لله صالحًا، أخا رسـول الله، ما نال الكرامة من الله إلاّ بطاعته لله ولرسـوله، وما نال رسول الله صلى الله عليه وآله الكرامة من الله إلاّ بطاعته". م. ن، ج١، ص٣٢٤.

٢ - فلهاوزن: الخوارج والشيعة، ص٢٤١.

ثم يتطرف ويقول: «اعتاد الفرس أن يروا ملوكهم منحدرين من أصلاب الآلهة فنقلوا هـذا التوقير الوثني إلى علي وذريته، فالطاعة المطلقة للإمام من نسـل علي هو الواجب الأعلى.. إن الإمـام عندهم هو كل شيء.. إنه اللـه وقد صـار بشرًا، فالخضـوع الأعمى المقرون بانتهـاك الحرمات هو الأساس في مذهبهم»[١]. ويضيف: «آراء الشيعة تُلائم الإيرانيين، وهذا أمر لاشـك فيه لأنَّه انتقـل إليهم من العرب وجمع بـين أولئك وهؤلاء الفكرة السبئية التي هي فكرة عربية»[٢].

لم يذكر لنا (فلهاوزن) شـخصًا فارسـيًّا واحدًا أدخل معتقدات الفرس إلى التشـيُّع الإمامي. وهو يـتردد بين (عبد الله بن سـبأ) اليهودي اليمني والعناصر الفارسـية في نسبة صناعة التشـيُّع إليها. لم يميّز (فلهاوزن) بين الشـيعة والغلاة الذين تبرأ منهم الأئمة عليهم السـلام وطردوهم. وحاول تمريـر ما لا واقع له تاريخيًّا. ولم يسـتطع حسـم أمـره بخصوص جذور التشيُّع بسبب غياب الدليل لديه.

لم يُصبح الإيرانيون شـيعةً بمعظمهم إلا في زمـن الدولة الصَّفوية التي تأسسـت سـنة ١٥٠١ م. وليس من المنطق ولا الإنصاف القول إنَّ التشـيُّع أخذ أفكاره من الفرس، أو إنَّه يناسـبهم أكثر مـن بقية المذاهب، بينما كانوا

١ - فلهاوزن: الخوارج والشيعة، ص٢٤١.
٢ - فلهاوزن: الخوارج والشيعة، ص٤١.

على مدى أكثر من تسعة قرون يتبعون المذاهب السُّنية. يحتاج الأمر طريقةً وكيفيةً لفعل ذلك يعجز (فلهاوزن) عن توضيحها لأنها عدمٌ تاريخي. بل إنَّ أئمَّة أهل السُّـنة معظمهم فرس، على عكس الشيعة الذين يتخذون من عترة النبي أئمة لهم. ولو جاز اعتبار مذهب معين فارسيًّا لكان المذهب السني.

صحيح أنَّ بعض مؤسسي فرق الغلاة هم من الموالي مثل: (محمد بن أبي زينب مقلاص) المعروف بأبي الخطاب و(المغيرة بن سعيد) و(محمد بـن نصير)، لكن هناك فرق كبير بين الإمامية والغلاة. وقد تبرأ منهم الأئمة عليهم السـلام بشـدة، ومنذ قرون طويلة انقرض أتباعهم ولم تبق إلا فرقة تنسـب نفسـها لمحمد بن نصير، لا تقبل بمعتقدات الشيعة الإمامية، ولا تلتزم بمنظومتهم الفقهية.

أمَّـا الحديث عن الانتخاب الـذي زعم (فلهاوزن) أنه يلائم الإنسـان العـربي، والوصية التي ادَّعى أنها تلائم المـزاج الفارسي، فلا يصمد أمام الوقائع التاريخية. لم تكن هناك انتخاباتٌ ولا حتى سـلطة سياسـية لدى العرب قبل الإسـلام، والذي كان موجودًا هو استبداد النخبة الأرستقراطية مـن خلال مجلسٍ يُعرف بدار الندوة في حالـة قريش. والنبي هو أوَّل من اختاره العرب حاكمًا لهم بعد بيعتين منفصلتين.

والذيـن جاءوا من بعـده لم يأتوا بالانتخـاب. فـ«الخليفة الأول» كان جـزءًا من انقـلاب أمَّنه اتفاق الصحيفة التي كتبـت ودفنت في الكعبة بين (أبي بكـر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وسـالم ومعـاذ بن جبل) وجماعة

أخرى معهم[١]. وأنجحته عسكريًّا قبيلةُ «أسلم» التي أرسلت أربعة آلاف فارس مسلَّح إلى المدينة بعد وفاة النبي بقليل، وهم الذين ساعدوا على أخذ البيعة بالإكراه من الناس[٢]. وكان عمر هو أول من بايع دون اتفاق مسبق مع من حضر في سقيفة بني ساعدة. وهو الذي وصف بيعة أبي بكر بعد ذلك بالفلتة، وقال من عاد إليها فاقتلوه[٣]. لكنَّ عمر نفسه عاد إليها فاستلم السلطة بوصية من سلفه. وبهذه الحجة برر أبو لؤلؤة قتله له.

ولم يستمر الأمر طويلاً، حتى تحوَّل بشكلٍ واضح إلى مَلكية مع الأمويين ثم العباسيين ثم السلاجقة والعثمانيين وكل الآخرين. وأبو بكر هو من سمَّى نفسه خليفة رسول الله. بينما زعم عثمان، حين حاصره الثوار وطالبوه بالاستقالة، أنَّ الخلافة قميصٌ ألبسه الله إياه ولن ينزعه مؤسسا بذلك نزعة ثيوقراطية.

أما الخليفة الوحيد الذي وصل باختيار الناس ودون إكراه ولا مكر فهو الإمام علي عليه السلام. وهو وحده الذي لم يُكرِه أحدًا على بيعته وترك من لم يبايعه وشأنه كما هي حالة (سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد).

---

١ - سليم بن قيس الهلالي: كتاب سليم بن قيس، ص١٥٤.

٢ - الطبري: تاريخ الملوك، ج٢، ص٤٥٨. ابن الاثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٣٣١.

٣ - البخاري: صحيح البخاري، ج٨، ص٢٥، ح٦٤٤٢.

لم يَظهر الشيعة بعد مقتل عثمان كما يقول (فلهاوزن)[١]، بل إنَّهم كانوا موجودين في حياة النبي وكان الناس يشيرون إليهم بشيعة علي ومنهم (المقداد وسلمان وأبي ذر وعمار) وهؤلاء هم طليعة الشيعة. فمثلاً يُروى عن أبي سعيد الخدري قال: «نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عليٍّ عليه السلام فقال: «هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة»[٢]. كانت كلمة شيعة تضاف إلى شخص فيقال شيعة علي وشيعة فلان، ثم وضعت الألف واللام العهدية لكلمة «شيعة» وصار المقصود بـ «الشيعة» شيعة علي حصرًا.

لا أساس لربط أي دين أو مذهب أو أيديولوجيا بقومية معينة. فالمعتقدات والأفكار لا تعترف بالحدود ولا بالانتماءات القومية. وهذا يشمل التشيُّع والإسلام ذاته. لقد انتقل الفرس من المجوسية إلى الإسلام تمامًا كما انتقل العرب من الوثنية إلى الدين الجديد. وهذا الأمر يتكرر كثيراً في التاريخ عندما تنتقل الشعوب من دين إلى آخر.

يترنح المستشرقون حين ينسبون التشيُّع مرة إلى جذور يهودية ومسيحية، وأخرى إلى جذور فارسية وزرادشتية. يقول المستشرق السويدي (هنريك صمويل نيبرغ) (١٨٨٩ - ١٩٧٤) في مقدمته لكتاب «الانتصار في الرد

---

١ - م. ن، ص٢٤٥.

٢ - ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٤٢، ص٣٣٣. سبط ابن الجوزي: تذكرة الخواص، ص٥٣. الحافظ ابن الغطريف، الجزء، ص٨١-٨٢. وتوجد أحاديث مشابهة ذكر فيها عبارة "شيعة علي" بلغت ٤٥ حديثًا آخر.

عــلى ابن الراونــدي»: «إنَّ الشــيعة كانت محــل امتزاج الثنوية بالإســلام خاصــةً، إذ إنَّ أفكارها من المناســبة لآراء الثنوية مــا لا يخفى، مثال ذلك قولها في أئمتها وتجســيمها الذي هو أقرب شيء إلى تجســيم الثنوية، ثم ثبــت على كثير من رجالها أنهم جمعوا بــين الرفض والزندقة». وهو يكرر جهالات الاســتشراق التي تردد كلامًا غير علمــي ولا معرفة لدى أصحابه بحقيقة معتقدات التشــيُّع الإمامي، الذي يرفض التجســيم والثنوية ويؤكد عــلى توحيد الــذات الإلهية وتنزيهها بشــكل قاطع ولا مثيــل له كما تعج بذلك مدوناته الروائية[1].

يتحــدث (فلهاوزن) عن «تخلي الشــيعة عن تربيــة القومية العربية»[2]. لكن التشيع لا يعترف بالحدود والقومية، ويعتبر الإسلام دينًا عالميًّا. ليس

---

١ - من ذلك: «عن يعقوب السراج، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن بعض أصحابنــا يزعم أنَّ لله صورة مثل صورة الإنســان، وقال آخر: إنَّــه في صورة أمرد جعد قطط، فخر أبو عبد الله ساجدا، ثم رفع رأسه، فقال: سبحان الله الذي ليس كمثله شئ، ولا تدركه الأبصار، ولا يحيط به علم، لم يلد لأن الولد يشــبه أباه، ولم يولد فيشــبه من كان قبله، ولم يكن له من خلقه كفوا أحد، تعالى عن صفة من سواه علوا كبيرا". و"عن ســهل بن زياد، عن بعض أصحابنا، قال: كتبت إلى أبي الحسن عليه السلام أسأله عن الجســم و الصورة، فكتب: ســبحان من ليس كمثله شئ ولا جســم ولا صورة». انظر كتــاب: الصدوق: التوحيــد، ص١٠٢-١٠٣، ح١٥-١٩. وانظر أيضا للتوســع: الكليني: أصول الكافي، ج١. والمجلسي: بحار الأنوار، ج٣.

٢ - يولويوس فلهاوزن: الخوارج والشيعة، ص٢٣٩.

التشـيع شـيئًا غير الإسـلام، في صورته النَّقية، وهو ليس عربيًّا من الناحية السياسـية كما يدَّعي (هنري موسـيه)، ولا فارسـيًّا من الناحية الدينية كما يزعـم (فلهاوزن)، بل هو وحي الله إلى نبيه كما حفظه أهل بيته من الأئمة الاثني عشر.

فشلت المواقف الاسـتشراقية في تأصيل التشـيع خارج الإسلام، كما فشـلت قبل ذلك في تأصيل الإسـلام خارج الوحي النبوي. فالاختلافات مع الديانات الأخرى الزرادشتية واليهودية والمسيحية جذرية. وهي تشمل الألوهية والنبوة والمعاد وكثيراً من التفاصيل الميتافيزيقية.

تؤمن اليهودية والمسيحية بالتجسيم والجبر، وتتهم الأنبياء بالموبقات، وتسـتبيح النبيذ والنجاسات والممسـوخات وغير ذلك، وهي تشترك في ذلك مع المذهب السـني[1]. بينما يخلو التشيُّع الإمامي من ذلك كله، ولا نجد فيه سـوى التنزيه الكامل للذات الإلهية عن الجسم والصورة والروح والجوهر والحركة والرؤية، تبرئة الأنبياء، والقول باختيار الإنسـان وتحريم الممسوخات والموبقات.

---

١ - يؤمن أهل السنة بالتجسيم، إمَّا بشكل مباشر مثل السلفية والظاهرية، وهي حالة ابن رجب والدشتي وابن تيمية وابن حزم مثلاً. أو بشكل غير مباشر مثل سائر الأشاعرة الذين ينسـبون الصورة للذات الإلهية ويدعون الرؤية في الآخرة. فالصورة لا تكون إلا للجسم والرؤية غير ممكنة في الدنيا والآخرة إلا للأجسام، لأنَّ عالم الآخرة مادي أيضا كما هي صفته في القرآن.

ثَانِيًا: جَوهَرُ التَّشَيُّعِ

يُبدي المستشرق اليهودي (غولدتسيهر) روحًا عدائيةً ضد التشيُّع بشكل خاص والإسلام بشكل عام، وهو يورد روايات تؤكد أنَّ الأئمة يمثلون الحق وأنهم حفظة الدين والأمناء عليه وأنَّ ما لدى الآخرين خليط من الحق والباطل، وأنَّ المعرفة الصحيحة بالدِّين في أصوله وفروعه لا تحصل إلا من خلالهم. وهو يعتبرها حقدًا وتكفيراً للآخرين. حمّل تلك النصوص ما لا تحتمل لأنَّها كانت بصدد بيان الحقيقة التي نجد ما يشير إليها بكثرة في المدونات الروائية السنية ومنها: حديث الثقلين وحديث الغدير المتواترين. وعندما يؤكد أئمة أهل البيت على مرجعيتهم فذلك بسبب إشفاقهم على ما يعيشه الناس من ضلال بسبب اتباعهم من لا علم له. وهو ما كان يقوله الإمام الباقر عليه السلام: «محنة الناس علينا عظيمة: إن دعوناهم لم يجيبونا، وإن تركناهم لم يهتدوا بغيرنا»[١].

جُعلت الإمامة سببًا لاتهام التشيع بتكفير مخالفيه. وهو ما فعله (غولدتسيهر) فقال: «أحاديث عند الشيعة مفعمة بالعداء نحو المسلمين الذين يخالفونهم في المذهب بأكثر ما يشعرون به نحو الكفار»[٢]. غير أنَّ ذلك لا أساس له. فمن نطق الشهادتين هو مسلم في حديث الأئمة. وقد قال العلامة المجلسي: «والإسلام هو الإذعان الظاهري بالله وبرسوله،

---

١ - الطبرسي: الاحتجاج، ج١، ص١٨٠.
٢ - غولدتسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ص٢١٠.

وعدم إنكار ما علم ضرورة من دين الإسلام، فلا يشترط فيه ولاية الأئمة عليهم السلام ولا الإقرار القلبي، فيدخل فيه المنافقون، وجميع فرق المسلمين، ممن يظهر الشهادتين، عدا النواصب والغلاة والمجسمة، ومن أتى بما يخرجه عن الدين كعبادة الصنم، وإلقاء المصحف في القاذورات عمدا، ونحو ذلك»[١].

وهذا الكلام يستند إلى أقوال الأئمة التي تُميّز بين الإسلام والإيمان فتجعل الإسلام عامًّا والإيمان خاصًّا. في حديث للإمام الحسن، عليه السلام قال: «إنما الناس ثلاثة: مؤمن يعرف حقنا ويسلم لنا ويأتم بنا، فذلك ناج محب لله ولي. وناصب لنا العداوة يتبرأ منا، ويلعننا، ويستحل دماءنا، ويجحد حقنا، ويدين الله بالبراءة منا، فهذا كافر مشرك، وإنما كفر وأشرك من حيث لا يعلم كما يسبوا الله عدْوًا بغير علم، كذلك يشرك بالله بغير علم. ورجل آخذ بما لا يُختلف فيه، ورد علم ما أشكل عليه إلى الله مع ولايتنا، ولا يأتم بنا، ولا يعادينا، ولا يعرف حقنا، فنحن نرجو أن يغفر الله له، ويدخله الجنة، فهذا مسلم ضعيف»[٢].

وفي الحقيقة، فإنَّ أكثر من تعرض للتكفير والقتل والتهجير -عبر التاريخ وفي محطات كثيرة ومتعددة- هم الشيعة وأئمتهم. بدأ الأمر بسب

---

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج٦٥، ص٢٤٤.
٢ - الطبرسي: الاحتجاج، ج٢، ص٧.

عـلي على المنابر طوال فـترة حكم الأُمويين، ولم ينتـه بملاحقة أصحابه أوَّلًا، ثم شيعته بعد ذلك على امتداد خط التاريخ.

ونحن مضطرون لإيراد فتاوى بعض علماء أهل السنة في تكفير الشيعة حتـى يكون الأمر واضحا. يقول (ابن تيمية) مثلا: «إنَّهم -أي الشـيعة- شر من عامة أهل الأهواء وأحق بالقتال من الخوارج وهذا هو السبب فيما شاع عندهم أن ضد السـني هو الرافضي فقط»[١]. وقال: «إنَّ معتقداتهم أخبث المعتقدات وإنهم أحقد الفرق على المسـلمين وأشدهم خطرا عليهم»[٢]. وما قاله (ابن تيمية) هو بالضبط ما كرره كثير من المستشرقين.

وهـذا الاتجاه لا يتبناه فقـط (ابن تيمية) بل إنَّ الكثـير من علماء أهل السـنة يقول ذلك. فمثلاً ينقل عـن (طلحة بن مصرف) قوله: «الرافضة، لا تُنكح نسـاؤهم ولا تُؤكل ذبائحهـم لأنَّهم أهـل ردة»[٣]. وقال (محمد بن يوسـف الغرياني): «ما أرى الرافضة والجهميـة إلا زنادقة»[٤]. وقال (عبد القاهر الجرجاني): «وأمَّا أهل الأهواء من الجارودية والهاشمية والجهمية والإماميـة الذين أكفروا خيـار الصحابة، فإنَّا نكفرهـم، ولا تجوز الصلاة

١ - ابن تيمية: مجموع فتاوى أبن تيمية، ج٢٨، ص٤٨٢.
٢ - ابن تيمية: مجموع فتاوى أبن تيمية، ج٢٨، ص٤٨١-٤٨٥.
٣ - ابن بطة: الشرح والإبانة في أصول السنة والديانة، ص١٦٠.
٤ - اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ص٢٨١٢.

عليهم عندنا، ولا الصلاة خلفهم»[١]. وقال (السمعاني): «أجمعت الأمة على تكفير الإمامية»[٢]. كفّر كثيرٌ من أئمة أهل السنة بمن فيهم (مالك بن أنس والبخاري وأحمد بن حنبل والشافعي)[٣]، الشيعةَ. ومن الطبيعي أن تكون لدى بعض علمائهم ردة فعل.

لا توجد في تعاليم أهل البيت مثل هذه المواقف المتشنجة التي يطلقها (ابن تيمية والغرياني والجرجاني وابن حنبل ومالك والشافعي وعياض والسمعاني) وغيرهم. وإذا قال أئمة أهل البيت وشيعتهم إنَّ الحقَّ معهم فهذا شيء تقوله كل الفرق وفي هذه الحالة ينبغي أن تكون الحجج والبراهين هي سيدة الموقف وليس الشتائم التي لا تعبر عن علم ومعرفة وحجة قوية.

كان الإمامُ علي يرفض سبَّ أهل الشام، رغم أنهم كانوا يحاربونه، ويقول لبعض أصحابه عندما سمعهم يسبونهم: «إني أكره لكم أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول

---

١ - عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق، ص٣٥٠.

٢ - الهيثمي: مجمع الزوائد، ج٧، ص١٦٣. مصنف عبد الرزاق: ج٧، ص١٢٤-٣٣٠، ح ١٣٣٦٤. ابن حجر: فتح الباري، ج٨، ص٤٩٢، صحيح البخاري: ج٦، ص٦٣، البيهقي: السنن الكبرى، ج٣، ص٢٢٧، مالك بن أنس: الموطأ، ج١، ص١٠٦، ح١٣، الشوكاني: فتح القدير، ج٥، ص٢٢٨. تفسير القرطبي، ج١، ص٨٦.

٣ - القاضي عياض: المدارك، ج٢، ص٤٦. أحمد بن حنبل: السنة، ص٨٢. البخاري: خلف افعال العباد، ص١٢٥.

وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم. اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به"[١].

ثَالِثًا: التَّشَيُّعُ وَالسِّيَاسَةُ

قال (هنري ماسيه) إن «السُّنة كنيسة إجماع بينما الشيعة كنيسة سلطة»[٢]. وهو بذلك يكرر ما يقوله (غولدتسيهر) عن الفصل بين الدين والسياسة عند أهل السنة، والوصل بينهما عند الشيعة. فقد ادَّعى هذا المستشرق المجري أنَّ الرسول صلى الله عليه وآله توفي ولم يحدد بشكل قطعي رأيه في خلافته. وهذا هو سبب نشأة التشيع[٣]، وقال إنَّ القراءة الشيعية تريد من خلال «التفسير التعسفي»، «العثور على آياتٍ قرآنية تؤيد هذا النظام المقرر»[٤]، ويقصد بذلك اعتبار الإمامة وتسلسلٍ الأئمة من علي وحتى المهدي عليهم السلام وصية من النبي. وهو لا يدرس حجج الشيعة ولا مستنداتهم وإنما يلقي مواقفه دون نقاش علمي.

ويتحدث (غولدتسيهر) عن «إجماع أهل السنة» على إقرار النظام القائم

---

١ - خطب الامام علي: نهج البلاغة، ج٢، ص١٨٦، رقم ٢٠٦.
٢ - هنري ماسية: الإسلام، ص١٩١.
٣ - غولد تسيهر: العقيدة والشريعة، ص١٦٧.
٤ - غولد تسيهر: العقيدة والشريعة، ص١٧٥.

معتبراً أنَّ الشـيعة اختاروا الوقوف في المعارضة لكل الأنظمة السياسـية. وهو بذلك يجعل إجماع أهل السنة حجة على غيرهم، في حين أنَّ الحُجة يجب أن تستند إلى شيء مسلم به من الجميع.

يَفصِل السُّـنيون فعليا بين الدين والسياسـة، بل إنَّهم يُخضعون الدين للسياسـة، من خلال اختراع وظيفة المفتي التابع كليًّا للحاكم السـياسي، كـما هي حالـة (كعب الأحبـار) زمن (عمر بـن الخطـاب) و(محمد بن مسـلم الزهري) في البلاط الأموي و(مالك بن أنس) لدى العباسيين، وهم بذلك اسـتنبتوا من داخلهم علمانية مبكرة. إنَّ اجتهادات «الخلفاء» خارج النـص هي تعبير عن التخـلي عن النص الديني لصالح رأي السـلطان أو الطبقة الحاكمة. وهذه خُطوة مبكرة في اتجاه عَلمَنة الدولة. ومن الطبيعي تبعًـا لذلك أن يُصبح رأي «الخليفة» مقدسًـا ونقـده جريمة يعاقب عليها. فالمعـارِض إنمـا يعارض حاكمًا يقدم نفسـه شـخصًا معصومًا في مقابل النص الديني في القرآن والسنة.

أما الشـيعة فإنهم ربطوا بين الدين والسياسة، وجعلوا السياسة خاضعة لأحكام الدين لأنَّ الإمام عندهم لا يجتهد ولا يقول رأيه وإنما يطبق القرآن والسـنة. وحتى في القرار السـياسي، فإنَّ الدين هـو المُقدَّم على مصلحة الحاكـم أو الفئة مهما كانت. وهذا ما أخذه كُتّابٌ وباحثون ومسـتشرقون على الإمام علي عندما رفض ممارسـة المحابـاة مع المقربين منه، والغدر والخداع ضد خصومه. ورغم أن القرآن والسـنة نصَّـا على عصمة الإمام،

إلا أنَّ الإمام علي وبقية الأئمة كانوا يقبلون النقد ويوضحون للناس أسس حديثهم وأحكامهم من القرآن والسنة بالحُجة والدليل.

لا يقـول الإمام ولا يفعل سـوى حكم الله؛ وهو لذلـك يتحرك تحت سقف القانون الإلهي كما هو مثبت في القرآن والسنة وليس فوقه كما يفعل الحاكم السُّـني. بل إنَّ الفُقهاءَ السُّـنة ينكرون معارضة الحاكم ويحكمون عليه بالمروق والرِدة، بينما عند الشيعة وأئمتهم، لا مشكلة في مجرد النقد والمعارضة ما دامت سـلمية. وقد كان الإمام علي يقـول للخوارج عندما كانوا ينتقدونه ويكفرونـه ويقولون: "لا حكم إلا لله": "كلمة حق يراد بها باطل، لكـم عندنا ثلاث خصال: لا نمنعكم مسـاجد الله أن تصلوا فيها، ولا نمنعكـم الفيء مـا كانت أيديكم مع أيدينـا، ولا نبدؤكم بحرب حتى تبدؤونـا"[1]. فلم يـرد عليهم عندما كانوا يشـتمونه، وواجههم فقط عندما تحولوا إلى قتلة وقطاع طرق.

ليس التشـيع حالة ثيوقراطية كما يتهمه المسـتشرقون ومن تابعهم في ذلـك، لأنَّ الإمام لا يحكـم برأيه ولا يمنع المعارضة، رغـم أنَّه كان على حـق دائمًا كما قال عنه النبي صلى الله عليه وآله. والثيوقراطية، التي تعني الحكم باسـم الله دون حقيقة، تنطبق على الحاكـم الذي يدَّعي أنَّه يطبق أحكام الدين وهو يعلم أنه يخالفها، ويرفع شعاراتها وهو لا يدري ما هي.

---

١ - القاضي النعمان: دعائم الإسلام، ج١، ص٣٩٣.

وهذا واضحٌ في سيرة بعض «الخلفاء» الذين كانوا كثيري الخطأ وكان الإمام علي كثيرَ التصحيح لأخطائهم. وفي أحيان أخرى كانوا يُصرون على الخطأ ويقولون إنَّ آراءهم حسنة فيما بات يعرف في الفقه السُّني بالبدعة الحسنة، ويظهر ذلك بشكل أوضح في سيرة عثمان الذي ادَّعى أنَّ الخلافة سربالاً سربله الله إيَّاه ولن يخلعه. والمفارقة أنَّ تلك الآراء والاجتهادات خارج النصوص باتت مقدسةً وصارت دينًا، وأصبح الخروج عنها عَلمانية!

اشترط الإمام علي عليه السلام، رضا الناس وقبولهم ببرنامجه في الحكم لاستلام السلطة. فهو يرفض منطقَ الانقلاب أو الغلبة أو الخداع وكان يقول: «إنَّ بيعتي لا تكون خفيا ولا تكون إلا عن رضا الناس»[1]. ولاحقا رفض الإمام الصادق عليه السلام عرض (أبو سلمة الخلال) في تولي السلطة بعد سقوط الأمويين. ثم رفض الإمام الرضا عليه السلام بعد ذلك عرض (المأمون) ولم يقبل بولاية العهد إلا تحت الإلحاح وبشروطه هو.

رَابِعًا: حَدِيثُ الغُرَبَاءِ

اهتم (هنري كوربان) بما يسميه الروحانيات الشيعية. فزار الهند وإيران التي أقام فيها زمنًا والتقى بعض علمائها. كان يقول: «إنَّ ما يشغلنا هو

١ - الطبري: تاريخ الطبري، ج٤، ص٤٢٧. البلاذري: أنساب الأشراف، ج٣، ص١١.

الروحانيات الشيعية»[١]. حاول (كوربان) الإيحاء بأنَّه بصدد اكتشاف عالَم غريب وغامض، كما لو أنَّ التشيُّع الإمامي عالمٌ من الأسرار التي لا يمكن الاطلاع عليها رغم أنَّ كتبه متاحة لمن يريد في مكتبات العالم.

يعـرّف (كوربان) الإمـام بأنَّه «هادٍ داخلي، وهذه الفكـرة تهيمن حقيقةً على الروحية الشـيعية كلها»[٢]. لكن الإمام ليس هاديًا داخليًا فحسب، بل هو هادٍ لكل المسلمين وللناس كافةً. فهو أحد خلفاءِ الرسول الذي يحمل رسالةً عالميةً.

ويحاول (كوربان) الاسـتنجاد بحديث للنبي صلى الله عليه وآله نسبه للإمام الصادق عليه السـلام: «بدأ الإسـلام غريبًا وسـيعود غريبًا فطوبى للغرباء». ولاشـك أنَّ الإسـلام عاد غريبًا كما قال النبـي ولكن ليس كما فسره (كوربان) الذي كتـب: «الغرباء أولئك الذين يغتربون عن الجمهور لاتبـاع العبـادة الروحية للإمام»، وهو «ما تمَثّله الشـيعة بالنسـبة لأولئك الذين ينتمون إلى مذاهب الأئمة المقدسـين»[٣]، فهـذا المعنى لا ينطبق على التشـيُّع الذي لم يختر حياة الانزواء والانفصال عن الناس، بل حرَّك المؤمنـين نحو حياة اجتماعيـة طبيعية دون فقـدان خصوصياتهم الدينية والثقافية.

---

١ - هنري كوربان: الشيعة الاثنا عشرية، ص٢٣٠.
٢ - هنري كوربان: الشيعة الاثنا عشرية، ص٢٣٠.
٣ - هنري كوربان: الشيعة الاثنا عشرية، ص٣٣٠.

إنَّ الغربة التي أشـار إليها الحديـث، تعني ابتعاد الناس التدريجي في خط الزمن عن تعاليم الإسلام، وذهابهم إلى اعتناق مذاهب وأيديولوجيات أخـرى، بحيث يصبح المتمسـكون بدينهـم -كما حفظه الأئمـة- قليلين وغرباء بين النَّاس في أفكارهم ومعتقداتهم.

ليسـت الإمامة فكرةً باطنيةً كما يريد (كوربان) القول، بل هي حالة إسـلامية أصيلـة، ولا يخلو منها دينٌ أو مذهبٌ حتـى وإن أنكر ذلك. فـكل الأديان لها زعماء، وكل الدول لهـا حكام. ولا توجد جماعة بلا قيادة.

أراد (كوربـان) تحويل التشـيُّع إلى حالـةٍ صوفيَّةٍ منغلقـةٍ بعد أن أخذ الصوفية عنه مفاهيم الولاية والعرفان وعبَّأوها بمعتقداتهم الخاصة. يقول: «فالمعرفـة الروحية الشـيعية نزعت دومًا إلى صيانة التـوازن والتوافق بين الظاهر والباطن، الرمز والمرموز إليه توازنًا كثيراً ما يشـده بالمقابل بصوفية ما»[1]. فهو على هذا النحو أراد تحويل التشيُّع إلى مجرد طريقة صوفية في محاولة إسقاطٍ غير واعيةٍ لبعض النزعات المسيحية المشبعة بالمعتقدات الغنُوصية على التشيُّع.

لاشـك في وجود هذا التـوازن بين الداخل والخارج في التشـيُّع، فهو شيءٌ يدخل في جوهر الإسـلام الذي يريد للإيمان الشـخصي أن ينعكس

١ - هنري كوربان: الشيعة الاثنا عشرية، ص٣٥.

في السلوك الخارجي. ولاشك أيضًا في البُعد الروحي العميق للتشيُّع كما تعبر عنه منظومة العبادات الإسلامية الموروثة عن الأئمة بما في ذلك الدعاء والمناجاة والصلاة وغير ذلك. غير أنَّه لا يوجد احتكار للمعرفة لدى الأئمة، فتراثهم في متناول كل الناس.

◀ المبَحَثُ الثَّاني: الإِمَامَةُ وَالوِلَايَةُ

ليست الإمامةُ وراثةً دينيَّةً بقدر ما هي مؤهلات وقدرات تميز الإمام. وهي أيضًا ليست وراثة سلطة، بقدر ما هي استعدادات ذهنية وأخلاقية. لكنَّها من ناحية أخرى مسؤولية رسالية بكل مضامينها العلمية والدينية والقِيَمية يتحملها الإمام عن النبي من بعده، فهناك دائمًا تأثير قوي ومباشر للأستاذ على تلميذه المقرب. وقد كان الإمام علي تلميذ النبي صلى الله عليه وآله منذ أن كان صبيًّا، فهو الذي ربَّاه وعلَّمه. وعليّ بدوره، ربَّى الحسنَ والحسين عليهم السلام. وكل إمام يربي الإمام الذي يليه. وهذا التَميُّز لا يقول به الشيعة بخصوص أئمتهم، بل يؤكده القرآن عندما يتحدث عن ذرية إبراهيم إسحاق ويعقوب ويوسف وصولاً إلى موسى وعيسى عليهم السلام. ثم ذرية إبراهيم من جهة إسماعيل، وصولاً إلى محمد وعلي والأئمة من بعدهم.

أَوَّلًا: خَصَائِصُ الإِمَامَةِ

يلصق (فلهاوزن) بالشيعة ما ينفيه عن السنة في نقطتين أساسيتين: الأُولَى، أنَّ الشيعة أخذوا عن اليهود فكرة أنَّ النبي مَلك يمثل سلطان الله على الأرض[١]. بينما يقول السُّنة حسب رأيه إن الشريعة حلت محل الرسول بعد وفاته وهي أثر مجرد وغير مشخص يعوض وجود النبي[٢]. لكنَّه يدَّعي أنَّ الشريعة أقل قيمة من الرسول مما اعتبره الشيعة نقصا أدى إلى ظهور نظرياتهم في الإمامة والولاية وأنَّ لكل نبي خليفة كما هو الحال عند اليهود.

والثَّانِيَة: أنَّ السُّنة حزبٌ ديمقراطي، بينما كان الشيعة حزبًا ملكيًّا متعصبًا اتجه إلى تأليه أهل البيت من خلال مقولة الرجعة أو التناسخ عند الغلاة، وهو يزعم أنها فكرة يهودية مفادها أنَّ الله اتحد في آدم ويظهر في صورة إنسان بصفة نبي صادق وفي صور متعددة[٣]. لكنَّه يستطرد أنَّ الشيعةَ المتأخرين فهموا الرجعة بشكل مختلف، فقالوا بغيبة الإمام ثم ظهوره من جديد وهذا عنده مرادف لفكرة التناسخ. تَبيَّن أن لا وجود للديمقراطية حتى لو كانت شكلية لدى خصوم أئمة أهل البيت. وأنَّ «الديمقراطية الحقيقية» التي تعني حرية اختيار الحاكم والتزامه العدالة واحترام الحقوق العامة لا توجد خارج حكم الإمام من آل البيت كما برهنت على ذلك تجربة الإمام علي القصيرة.

---

١ - فلهاوزن: الخوارج والشيعة، ص٢٤٥.
٢ - فلهاوزن: الخوارج والشيعة، ص٢٤٨.
٣ - فلهاوزن، الخوارج والشيعة، ص٢٤٨.

لا يؤله الشيعة أئمتهم، كما يفعل الغلاة[١]. ولا يقولون بالتناسخ[٢]،

---

١ - في الرواية عن الإمام علي: «يا أبا ذر أنا عبد الله عز وجل وخليفته على عباده، لا تجعلونا أربابًا وقولوا في فضلنا ما شئتم فإنكم لا تبلغون كُنه ما فينا ولا نهايته، فإنَّ الله عز وجل قد أعطانا أكبر وأعظم مما يصفه واصفكم أو يخطر على قلب أحدكم، فإذا عرفتمونا هكذا فأنتم المؤمنون". المجلسي: بحار الأنوار، ج٢، ص٢٦.

٢ - رُوي عن الإمام الرضا عليه السلام: «من قال بالتناسخ فهو كافر بالله العظيم، يكذب بالجنة والنار". الصدوق: عيون أخبار الرضا، ج١، ص٢١٨. وفي الاحتجاج: «عن هشام بن الحكم أنه سأل الزنديق أبا عبد الله عليه السلام فقال: أخبرني عمن قال: بتناسخ الأرواح من أي شئ قالوا ذلك؟ وبأي حُجة قاموا على مذاهبم؟ قال: إنَّ أصحاب التناسخ قد خلفوا وراءهم منهاج الدين، وزينوا لأنفسهم الضلالات وأمرجوا أنفسهم في الشهوات، وزعموا أن السماء خاوية، ما فيها شئ مما يوصف وأن مدبر هذا العالم في صورة المخلوقين، بحجة من روي: أن الله عز وجل خلق آدم على صورته، وأنه لا جنة ولا نار، ولا بعث ولا نشور، والقيامة عندهم خروج الروح من قالبه ووُلُوجهُ في قالب آخر، إن كان محسنا في القالب الأول أعيد في قالب أفضل منه حسنا في أعلا درجة الدنيا. وإن كان مسيئا أو غير عارف صار في بعض الدواب المتعبة في الدنيا، أو هوام مشوهة الخلقة، وليس عليهم صوم ولا صلاة ولا شيء من العبادة أكثر من معرفة من تجب عليهم معرفته، وكل شئ من شهوات الدنيا مباح لهم من فروج النساء وغير ذلك من نكاح الأخوات والبنات والخالات وذوات البعولة، وكذلك الميتة والخمر والدم فاستقبح مقالتهم كل الفرق، ولعنهم كل الأمم، فلما سُئلوا الحجة زاغوا و حادوا، فكذب مقالتهم التوراة، ولعنهم الفرقان، وزعموا مع ذلك أنَّ إلههم ينتقل من قالب إلى قالب، وأن الأرواح الأزلية هي التي كانت في آدم، ثم هلم جرا تجري إلى يومنا هذا في واحد بعد آخر فإذا كان الخالق في صورة المخلوق فبما يستدل على أنَّ أحدهما خالق صاحبه؟ وقالوا: إنَّ الملائكة من ولد آدم كل من صار في أعلا درجة من

لأنَّ التناسخ يعني انتقال الروح إلى جسد آخر بعد الموت، وهو جزء من المنظومة الاعتقادية الغنُوصية التي تتبناها الأديان الوثنية والفرق الباطنية، والظهور بعد غياب ليس هو الرجعة. فالرجعة مختلفة عن الظهور كما أنها مختلفة عن التناسخ، وهي تعني عودة الروح إلى جسد صاحبها بعد وفاته، وهذه حقيقة إنجيلية وقرآنية، فقد كان المسيح يقول: ﴿**وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ [آل عمران: ٤٩]، وروى لنا القرآن قصة النفس التي قتلها بنو إسرائيل وتم التعتيم على القاتل، ﴿**فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: ٧٣]، وحدثنا عن قصة ﴿**أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [البقرة: ٢٥٩]. والقول إن هذه الرجعة ستحدث لبعض الأشخاص في المستقبل ليست محالاً بعد أن حدثت في الماضي.

دينهم خرج من منزلة الامتحان والتصفية فهو ملك، فطورا تخالهم نصارى في أشياء، وطورا دهرية يقولون إنَّ الأشياء على غير الحقيقة فقد كان يجب عليهم أن لا يأكلوا شيئا من اللحمان لان الدواب عندهم كلها من؟ ولد آدم حولوا في صورهم فلا يجوز أكل لحوم القربات". المجلسي، بحار الأنوار، ج٤، ص٣٢١.

لم يأخذ الشـيعةُ عن اليهود شـيئًا. فقد ترك بنو إسرائيل رسـالة موسى وذهبوا إلى استنسـاخ معتقداتٍ وثنيةٍ منذ أن طالبوا موسى بعد عبور البحر بصناعة صنم لهم يعبدونه مثل بقية الأقوام. وفكرة الأوصياء ليست خاصة بموسى بل هي حالة كل الرسل. فالمحافظة على الرسالة تحتاج قيّما عليها، وذلك القيم هو الوصي. والتشابهات بين الرسالة الإسلامية ورسالة موسى قبل تحريفها لا غرابة فيها، لأنَّ مصدرَهُمَا واحد وهو الوحي الإلهي.

تحتاج الرسالة ناطقًا باسمها ووصيًّا عليها، وقد حدد النبي في مواضع متعددة وصيَّه من بعده. ولو لم يفعل النبي ذلك لأمكن لكل مدَّعٍ الحديث باسـم الدين، ناسبًا العصمة لنفسه، ليضيع بذلك بشكل نهائي. ورغم أنَّ الكثيرين نصبوا أنفسهم بالفعل أوصياء على الدين، إلَّا أنَّ ذلك لن يستمر حتى النهاية كما تؤكد النصوص القرآنية والحديثية التي تحدثت كثيراً عن انتصار دين الله وظهوره في آخر الزمان.

لا يمكن لـ(فلهاوزن) أو غيره إنكار ذلك مع تواتر النصوص والروايات في هذا الموضوع. وحتى في المسـيحية المنحولة هناك إقرار بذلك. فقد كان بطـرس المعـروف بشـمعون الصَّفا الحـواري المقرب من المسـيح وهـو وصيه من بعده كما تقول ذلـك الأناجيل، فهم يعتبرونه أول باباوات الكنيسة، وهو من بنى الكنيسة الأولى[1]، فكان أول من دعا وشغل منصب المتحدث باسم الجماعة الأولى.

---

١ - متى ١٦: ١٨.

ثَانيًا: ضَرُورَةُ الإِمَامَة

تتفرع المهدوية بشكل منطقي عن أصل الإمامة من وجهة إسلامية. فهي تمثل جانبًا تشخيصيًّا للإمام الذي أوجب القرآن والنبي الولاء له. والإمام المهدي هو آخر الأئمة وخاتم الأوصياء، فهو الحلقة الأخيرة في سلسلة الأئمة الاثني عشر[1]. وإنكار الحلقة الأخيرة أو أي حلقة سابقة من هذه السلسة يعني إنكار وجود السلسلة كلها، بل يعني إنكارًا للدين ذاته حيث لا أمين عليه ولا حافظ له غيرهم.

حدد النبي الأئمة من بعده بالاسم حتى قبل مجيئهم إلى الحياة، من أجل المساعدة في معرفة الإمامِ الحقيقيّ الذي يتوفر في ذاته على كل

١- روَى سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي، بالإسناد إلى جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله، صلَّى الله عليه وآله: "يا جابر إن أوصيائي وأئمة المسلمين من بعدي أولهم علي، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم علي بن الحسين، ثم محمد بن علي المعروف بالباقر- ستدركه يا جابر، فإذا لقيته فأقرأه مني السلام ثم جعفر بن محمد، ثم موسى بن جعفر، ثم علي بن موسى، ثم محمد بن علي، ثم علي بن محمد، ثم الحسن بن علي، ثم القائم، اسمه اسمي وكنيته كنيتي، محمد بن الحسن بن علي ذاك الذي يفتح الله تبارك وتعالى على يديه مشارق الأرض و مغاربها، ذاك الذي يغيب عن أوليائه غيبة لا يثبت على القول بإمامته إلا من امتحن الله قلبه للإيمان». القندوزي: ينابيع المودة، ج٢، ص٥٩٣. وذكر آخرون من أئمة أهل السنة ومحدثيهم أنَّ عدد الأئمة اثنا عشر من قريش وأهملوا تسميتهم. انظر: البخاري: ح٧٢٢٣و٧٢٢٢. مسلم: ح١٨٢١. أحمد بن حنبل: مسند ابن حنبل، ج٥، ص٨٩، ح٢٠٣١٩. النووي: شرح صحيح مسلم، ج١٢، ص٢٠٣.

خصائص الإمام. ولأنَّ المسلمين أنكروا ذلك التشخيص طوال القرون التالية، فإنَّ النتيجة كانت التشتت والتنازع والتيه الذي لن يتوقف إلا بالعودة إلى تشخيص النبي صلى الله عليه وآله.

زعم (غولدتسيهر) أنَّ الشيعة أضافوا الإمامة والولاية وجعلوها ركنًا أساسيًّا للإسلام. لكنَّه لا يبدو مطَّلعا على النصوص الروائية الثابتة عن رسول صلى الله عليه وآله عند أهل السنة بخصوص خلافته. لم يُضف الشيعة شيئًا للإسلام من خارجه. ولا يوجد دين أو أيديولوجيا لا ترى السلطة بوجهيها السياسي والديني ضرورة، لأنَّ غير ذلك يعني الذهاب إلى الفوضى واختيار الموقف الأناركي الفوضوي. وبهذا المعنى، فإنَّ أهلَ السنة يرون في الإمامة ضرورة سياسية ودينية، والولاية لها واجب، إلى درجة يُحَرِّمُون معها الخروج على الحاكم. والاختلاف عن الشيعة الإمامية يصبح عمليًّا، يتعلق بتشخيص الأجدر بالإمامة والولاية. ففي حين تمسَّك الشيعة بتشخيص الرسول، ذهب أهل السنة إلى القبول بالأمر الواقع بل والدفاع عنه.

لم يترك القرآن والرسول صلى الله عليه وآله الأمر غامضًا وهلاميًّا، بحيث يمكن لكل مُدّعٍ أن يطرح نفسه إمامًا وحاكمًا للناس ويحصل على الشرعية الدينية والسياسية، بل حدده من خلال آياتٍ قرآنيةً وروايات وأحاديث كثيرة عن النبي. وتلك الأحاديث حاول علماء أهل السنة طمسها لمصلحة الحاكم المتغلب ورجال الدين التابعين له، بينما أصر الشيعة على إبرازها. وهنا يمكن أن نطرح مقارنةً بين أئمة الشيعة الاثني عشر وزعماء خصومهم

في المجالات العلمية والمعرفية والإيمانية والأخلاقية وغير ذلك، وسنجد أنَّ الجميع يعترف لأئمة الشيعة بأعلى درجات العلم والتقوى والحكمة والأخلاق الكريمة، بينما سنجد زعماء الآخرين يقفون على النقيض منهم.

لا توجد أمَّةٌ لا تمثل القيادة السياسية والدينية فيها أصلاً نظريًّا، ولا توجد أمة لا يمثل فيها الولاء لشخص الحاكم واجبًا عمليًّا، ومن لم يقدم ولاءه للحاكم والنظام الذي يمثله سواء كان ملكيًّا أو جمهوريًّا يصبح خائنًا.

إنَّ الزعامة الدينية ضرورة لا دخل لأحد في تحديدها سوى صاحب الرسالة، من وجهة إسلامية. فكما أنَّ النُبوة مسألة إلهية لا دخل لأحد فيها غير الله، فكذلك الإمامة. أمَّا الزعامة السياسية فقد قال النبي إنَّ الواجب الديني على كل مسلم الولاء للإمام ونصرته، ولكن دون إكراه سياسي أو إلزام مادي. فالنبي لم يترك جهازاً عسكريًّا أو ما يشبهه لتنفيذ وصيته بخصوص خلافته السياسية، بل جعل من إيمان الناس ذلك الأساس.

تتوحد القيادة الدينية والسياسية في شخص الإمام -كما يحدده الوحي- في نظر الإسلام. أمَّا في الديانات الوضعية والمذاهب التائهة، فإنَّ القيادة غالبًا ما تكون موزعة بين شخصين: فهناك الحاكم وهناك الزعيم الديني، وفي المنظومات الأيديولوجية هناك الحاكم وهناك المنظر الأيديولوجي.

وعلى هذا النحو، فإنَّ "المنطقة التي نبتت فيها جرائم السخافات"[1]

---

١ - غولدتسيهر: العقيدة والشريعة، ١٨٣.

ليست عند الشيعة كما يزعم غولدتسيهر، بل عند خصومهم بمن في ذلك أتباع الدين الذي يعتقد به هذا المستشرق. فهؤلاء جميعًا يطيعون من لا يستحق الطاعة، ويقتدون بمن لا يصلح أن يكون قدوةً.

ثَالِثًا: الإِمَامَةُ وَالعِصمَةُ

تحتاج الإمامةُ العصمةَ. وهذا شيءٌ يعلنه الشيعة. لكنَّ خصومهم يضمرونه لزعمائهم لأنَّ إعلانه يسبب لهم حرجًا بالغًا. إننا نجد أتباع المذاهب والديانات المختلفة يقدسون زعماءهم ويدافعون عنهم بقوة ويبررون لهم كل ممارساتهم مهما كانت خاطئة؛ وهذا يعني أنَّهم يعتبرونهم معصومين، لكنَّهم لا يعلنون ذلك لأنهم لا يستطيعون البرهنةَ عليه.

يشعر الإنسان في داخله بالحاجة إلى الزعيم المعصوم، ولكنَّه قد يخطئ في تشخيصه إمَّا دون قصد، أو بشكلٍ متعمدٍ عندما يعرف صاحب العصمة الحقيقي، ثم يتركه لاتّباع غيره ورفعه إلى مستوى العصمة.

ليس الاعتقاد في عصمة الإمام اختراعًا شيعيًّا، بل هو حقيقةٌ إسلاميةٌ وإنسانيةٌ مشتركةٌ. فالإمام ما لم يكن معصومًا فإنَّه قد يأخذ أتباعه إلى المكان الخطأ، لكن ما يميز الشيعة هو أنَّهم يحددون موضوعه ويشخصونه في أئمة أهل البيت الاثني عشر بعد أن فعل ذلك النبي بشكل مباشر في أحاديث صحيحة ومتواترة منها: «علي مع الحق والحق مع علي يدور

معه كيفما دار»[١] و»عليٌّ مَعَ الْحَقِّ وَالْحَقُّ مَعَ عَلِيٍّ وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٢] و»القرآن مع علي وعلي مع القرآن ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض»[٣]. و»إنيِّ تاركٌ فيكم ما إن تمسَّكتُم به لن تضلُّوا بعدي -أحدُهما أعظمُ من الآخَر-: كتاب الله، حبْلٌ ممدودٌ من السَّماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرَّقَا حتى يردَا عليَّ الحوضَ، فانظروا كيف تَخلُفوني فيهما»[٤]، فهذه وغيرها نصوص واضحة وصريحة في عصمة الإمام علي والعترة النبوية.

إنَّ ما حدث من فتن بعد وفاة النبي وعلى مدى القرون التالية كان صراعًا مركبًا موضوعه: الدين والسياسة، أثاره من لا يستحق خلافة النبي. فرغم أنَّ عليًّا هو صاحب الحق في ذلك لأنه كان الإمام الحقيقي الذي لا جدال فيه، إلا أنَّه لم يحارب إلا من موقع المدافع. بمجرد أن اختاره الناس خليفة حاربته الفئات المختلفة من قريش والأعراب. وبسبب التخلي عن وصايا النبي لم تنتكس الأمة في الفتن المتتالية فحسب، بل بدأت تنحرف

١ - السيوطي: جمع الجوامع حرف العين، ج١، ص١٩٧، ح١٤٤٩٥، رقم ١٩٧. الطبراني: المعجم الأوسط، ح٤٨٨٠. المعجم الصغير، ج٢، ص٢٨، ح٧٢٠. الحاكم: المستدرك، ج٤، ص٢١٧، ح٤٦٢٨.

٢ - الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج٦، ص٣١٣. سنن الترمذي، ح٣٧١٤.

٣ - الحاكم: المستدرك على الصحيحين، ج٤، ص٩٨، ح٤٦٨٥.

٤ - الترمذي: سنن الترمذي، ح٣٧٨٨. ومثله، أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، ح١٧٠. والطبراني: المعجم الكبير، ج٣، ص٦٥، ح٢٦٧٨. وغير ذلك..

عن الدين برمَّته، وكلما ابتعدنا زمنيًّا عن عصر الرسالة اتسعت الهوة بين الإسلام والمسلمين.

أُقصي الإمام مبكرًا عن موقعه الطبيعي في قيادة الأمة، لكن ذلك لم يفقده خصائص الإمامة. فالإمام هو من يقف أمام الناس في كل صفاته الذاتية في العلم والإيمان والعبادة والشجاعة والقوة والصبر والجود وحب الخير والزهد، والذاتي لا ينفصل عن صاحبه. وإقصاء الإمام عن موقعه الديني والسياسي في قيادة الأمة كان يعنى انتصاب ضدِّه في مكانه.

حكم المسلمين أضدادُ الأئمةِ على مدى قرون، وكانت النتيجة المعاناة المستمرة بسبب الاضطهاد والظلم والإفقار والمرض والتجهيل. فتلك السلاسل من الملوك والحكام كان أصحابها فارغين من الكمالات الإنسانية. وكانت ممارساتهم مغموسة بالظلم والطغيان والفساد. ولعل مسار التاريخ أراد أن يعطيهم فرصةً للتعبير عن أنفسهم وإثبات فشلهم. وعندما يصل الحكم في النهاية إلى الإمام الذي ادّخره الله للعالم ليحقق العدالة الغائبة، لا أحد يمكنه أن يقول لو حكمت لفعلت مثله.

رَابِعًا: بَشَرِيَّةُ الإِمَامِ

لا تنفي عصمة الإمام بشريته، كما يدَّعي (فلهاوزن)[١]. فهو بشرٌ يأكل

١ - فلهاوزن: الخوارج والشيعة، ص٢٤١.

ويـشرب، ويصح ويمرض، ويصحو وينام، ويحيا ويموت. غير أنَّ ما يميز الإمـام هو الجانب الإنسـاني فيه. فإذا كانت البشرية شـيئًا أفقيًّا يتسـاوى فيـه جميع البشر، فإنَّ الإنسـانية سُـلَّمٌ عمودي يتفاوت فيه الناس بشـدة، لأنَّـه يتعلق بالجوانب العلمية والمعرفيـة والأخلاقية والإيمانية. فهنا نجد العالم والجاهل، والعارف والضال، والشجاع والجبان، والمؤمن والكافر، والكريـم والبخيل، والبار والعاق، والخـيّر والشرير، والمنصف والظالم. إنَّ البشرية تخص على هذا النحو الجوانب البدنية والنفسـية المشتركة بين الناس، بينما تتعلق الإنسانية بالجوانب العلمية والأخلاقية والإيمانية.

والقرآن نفسه يؤكد تساوي الناس مع الآخرين في بشريتهم فقال: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ**﴾ [الكهف: ١١٠]، و﴿**قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ**﴾ [إبراهيم: ١١]. والاختلاف إنَّما يتعلق بالجوانب الإنسانية. ولذلك مدح الإنسـان أحيانًا فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ**﴾ [الانشـقاق: ٦]، ﴿**وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا**﴾ [الزلزلة: ٣]، وذمَّـه أحيانًا أخرى، فقال: ﴿**قُتِلَ الْإِنسَـانُ مَا أَكْفَـرَهُ**﴾ [عبس: ١٧]، و﴿**حَمَلَهَا الْإِنسَـانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا**﴾ [الأحزاب: ٧٢]، يقف النبي والإمام في قمة سُـلَّم الإنسانية لكنهما يتسـاويان مع الناس في بشريتهم. ويصعب على (غولد تسـيهر) أو أي مسـتشرق لا يملك اللغـة العربية أن يدرك هذا الفرق بين هذين المفهومين؛ "الإنسان" و"البشر" بما أنَّ اللغات الأوروبية خالية منه.

من غير الممكن أن يرسل الله رسولاً أو يجعل حُجة له على الناس لا يكون أفضلهم في مقياس الإنسانية، فالحكيم لا يرسل إلا من يثق في ذكائه وحكمته ويعرف الرسالة التي يحملها ويعلم تفاصيلها ويملك قوة الشخصية والقدرة على التواصل وجمال الخطاب وحسن المظهر. وهذا بالضبط ما يميز النبي والإمام. من غير الممكن أن يقبل الله جاهلاً وأخرقَ وفاسدًا يحكم باسمه.

يقول بعض المستشرقين: إنَّ النبي لم يستخدم في تأدية رسالته موهبة عقلية فائقة ترفعه فوق مستوى البشر العاديين، "وقد فصل القرآن هذا الرأي بطريقة واضحة ودقيقة ولم تتعده الطبقة الأولى من علماء الكلام والفقهاء، فالرسول لا يعلم الغيب وكذلك آل بيته ليس لهم صفات تزيد غيرهم"[1]. وهو بذلك يكرر كلام بعض الفرق والمذاهب التي أرادت أن تجرد النبي صلى الله عليه وآله من فضائله وتروي عنه ما يسيء له[2].

لاشك أنَّ هذا المستشرق قرأ عن انتصارات النبي التي تعكس حكمة سياسية وعسكرية فائقة، ولاشك أيضًا أنَّه قرأ عن معجزاته كالإسراء والمعراج ومؤازرة الملائكة له في بدر، ووصله خبر أخلاق النبي وسماحته،

---

١ - غولد تسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ص١٨٥.

٢ - انظر مثلاً البخاري: الروايات ٣٠٢-٢٧٨٨- ٢٧٨٩ - ٥٧٦٦ – ٦٥٨١.. وهي روايات تتهم النبي صلى الله عليه وآله بمحاولة الانتحار، والتعرض للسحر، والنوم في حجر امرأة أجنبية وهي أم حرام زوجة عبادة بن الصامت تفليه..

واطلع على ما كتبه المؤرخون حول قوته وشجاعته وسخاء نفسه وكرمه وهو يدعو الناس ويقود الحروب ويدير شؤون دولته الوليدة، ولاشك أيضًا أنَّه قرأ عن إيمان علي وقوته وشجاعته وعلمه وحكمته وبلاغته، لكنَّه لم يكن يقبل كثيراً من ذلك رغم وجود الأدلة التي تؤكده.

كان النبي يعلم الغيب، لكنَّ علمه لم يكن ذاتيًّا، بل من خلال الوحي. وقد مرر علمه كله للإمام من بعده. ووصل ذلك إلى الإمام الأخير الذي تؤكد الروايات أنه سينشره بين الناس عندما يأذن الله بالفرج وبناء دولة الإسلام. والقرآن يؤكد: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ**﴾ [الجن: ٢٦].

لا تنفصلُ الرسالة عن الرسول، فهو الرسالة ذاتها وقد تحولت إلى طريقة في التفكير ونمط في العيش. وإذا كان القرآن رسولاً صامتًا فإنَّ الرسول قرآنٌ ناطقٌ. ولأجل ذلك كان الاقتران الضروري بين الثقل الأكبر والثقل الأصغر، أي القرآن والعترة[1]. فالإنسانية تحتاج النظرية كما تحتاج القدوة ولا يمكن الاستغناء عن أحدهما.

إنَّ إنكار المستشرقين القدامى والجدد لعصمة النبي والإمام بطريقة غير مناسبة هو استعادة لموقف خصوم أهل البيت وشيعتهم. وهو موقف لا يُميّز

---

١ - الترمذي: سنن الترمذي٣٧٨٦- ٣٧٨٨. الحاكم: المستدرك، ح٤٥٧٧. والصيغة الأخرى "كتاب الله وسنتي" ضعيفة ولا توجد في "الصحاح الست".

بين مفهوم «البشر» ومفهوم «الإنسان» كما يفعل القرآن وكما هي الحقيقة الطبية والنفسية والعلمية. تعني العصمة تطابق ما يقوله المعصوم ويفعله مع ما يأمر به الله؛ وبسبب ذلك قرن القرآن بين طاعة الله وطاعة الرسول وطاعة ولي الأمر فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ [النساء: ٥٩]، فلو لم يكن الرسول والإمام يقولان ما يقوله الله ويفعلان ما يأمر به الله لما كان هناك معنى للأمر بطاعتهم، لأنَّ ذلك سيكون تناقضًا داخليًّا وأمرًا بمعصية الله نفسه، فطاعة غير المعصوم تعني طاعة من يمكن أن يعصي الله ويتمرد عليه ويسير في طريق غير طريقه.

رفع القرآن النبي والأئمة فوق مستوى الناس عندما قال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٥٦]. والصلاة عليه لا تكتمل إلا بالصلاة على آله، وهي دعاء برفع المنزلة، والتسليم له هو الإقرار بما جاء به عن الله. فهو الصادق في قوله والأمين في تبليغه للرسالة. وتمرير الرسالة إلى أهل بيته شيء تقتضيه معطيات العلوم النفسية والفيسيولوجية، لأنَّ الخصائص البدنية والنفسية والذهنية تُورّث. وهذا ما حدث مع إبراهيم وأبنائه. فهو نبيٌّ وأبو أنبياء. وقد رُوي عن النبي قوله عن الحسن والحسين في الجانب النفسي والأخلاقي: «أمَّا الحسن فنحلته هيبتي وسؤددي، وأمَّا الحسين فنحلته سخائي وشجاعتي»[1] وفي الجانب البدني

١ - الصدوق: الخصال، ص٧٧.

عن علي عليه السلام قال: «كان الحسن بن علي أشبه برسول الله صلى الله عليه وآله ما بين الصدر إلى الرأس والحسين أشبه فيما كان أسفل من ذلك»[١]. ولزيادة تحصين العترة تم تطهيرهم تكوينيًّا من كل رجس. من دون المعصوم لا تصل الرسالة سليمة إلى الناس، فهو من يعطيها الحياة ويجعلها تتحرك في تفكيرهم وأعمالهم.

وبعكس ما يدَّعيه (غولدتسيهر)[٢]، اعترف علماء أهل السنة بجلالة قدر الأئمة الاثني عشر جميعًا ولا أحد استطاع أن يجد عيبًا واحدًا في أحدهم، وبعضهم يقول إنَّهم أيضًا أئمة لأهل السنة. لقد قال النووي مثلاً عن الإمام الباقر عليه السلام: «هو تابعي جليل وإمام بارع مجموع على جلاله معدود من فقهاء المدينة وأئمتهم»[٣]. ومثل هذه الشهادات تكررت على ألسنة علماء أهل السنة في شأن الإمام الباقر وبقية الأئمة. أمَّا الإمام المهدي فإنَّ الروايات في شأنه متواترة، وهم يؤمنون بأنَّه قائد الفتح الثاني وهو الذي يعمم العدالة في العالم كله.

خَامِسًا: عِلمُ الإِمَام

يقول (غولدتسيهر) إنَّ «لدى الأئمة علم باطن مستور يتوارثونه،

١ - المجلسي: بحار الأنوار، ج٤٣، ص٣٠.
٢ - غولدتسيهر: العقيدة والشريعة، ص١٨٦.
٣ - النووي: تهذيب الأسماء واللغات، ج١، ص٨٧.

يتناول حقائقَ الدين وكافة وجودات العالم...، وصنَّف الشيعة طائفةً من المؤلفات الغريبة زعموا أنَّها تشمل هذا الوصف الخفي»[١].

لا أحدَ لديه اطلاع وإنصاف يشك في علوم الأئمة، غير أنَّه لا يوجد علم باطني كما يتحدث عنه (غولدتسيهر). وما يوجد هو علوم بحقائق الدين والوجود نثرها الأئمة وحدَّثوا بها وتناقلها عنهم حتى غير الشيعة، لكنهم لم يقولوا كل شيء. فبعض العلوم كانت فوق تحمل الناس، وتم إرجاء نشرها إلى حين ظهور الإمام القائم عليه السلام.

وربما كان (غولدتسيهر) يلمح إلى «كتاب الجفر» و«مصحف فاطمة» وهما كتابان مفقودان ولكنهما لا يتضمنان شيئًا غريبًا أو باطنيًّا غير بعض الأحكام والأحداث المستقبلية كما تقول المصادر. ولعل كتبَ الفتن وكتب الأصول تتضمن كثيراً مما ورد في تلك الكتب.

تلقى الإمام علي علوم النبي ومررها إلى خلفائه. والإمام الأخير هو من سينشر تلك العلوم بين الناس -كما تقول المصادر- ففي وصية الإمام علي لكميل بن زياد: «يا كميل ما من علم إلا وأنا أفتحه وما من سر إلا والقائم عليه السلام يختمه. يا كميل ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم»[٢]. وفي حديث الإمام الصادق عليه السلام: «العلم سبعة وعشرون

١ - غولدتسيهر: العقيدة والشريعة، ص١٨٨.
٢ - المجلسي: بحار الأنوار، ج٧٤، ص٤١٢.

حرفًا فجميع ما جاءت به الرسل حرفان فلم يعرف الناس حتى اليوم غير الحرفين فإذا قام القائم عليه السلام أخرج الخمسة والعشرين حرفًا فبثها في الناس وضمَّ إليها الحرفين حتى يبثها سبعة وعشرين حرفًا»[1].

يبقى العلم أحد أهم خصائص الإمام بل إنَّه أهمها. فهو سبب الإيمان والهدى والبصيرة والخير والعدل والإنصاف والحرية، ولا يمكن أن يكون الإمام جاهًلا ببعض ما يتعلق بالدين والحياة والوجود لأنَّ ذلك يفقده صفة الهادي التي أعلنها القرآن في قوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

لا يُسمى الشيعة الإمامية باطنية، فعلمهم ظاهر وكتبهم في المتناول ومعتقداتهم لا غلو فيها، والباطنية صفة تطلق على فرق أخرى مثل الإسماعلية والنصيرية. وهذا يعني أنَّ المستشرق الذي يتهم الإمامية بالباطنية ولا يميز بينهم وبين الفرق الأخرى ولم يدرك الفروق الكبيرة بينهم، أو ربما كان يدركها ولكنَّه بحث عن شيء آخر، هو بعيد عن الموقف العلمي وعن الموضوعية العلمية.

سَادِسًا: وِلَايَةُ الإِمَام

قال المستشرق الفرنسي (هنري كوربان) (١٩٠٣-١٩٧٨) أنَّ فكرة الولاية للأئمة: «هي الفكرة المحركة للتشيُّع وهي نفسها معرفة بالمعنى

١ - الحسن بن سلمان: مختصر بصائر الدرجات، ص١١٧.

الداخلي، فإنها ليست مطلقًا باطن الرسالة أو باطن النبوة، وهي نفسها المحتوى الباطني للتفسير الروحي للقرآن»[١]. ولاشك أنَّ الولاية واجب ديني. لكنَّ الشيعةَ لا يختصون بها، لأنَّ الوَلاء شيء يطلبه أي زعيم سواء كان سياسيًّا أو دينيًّا. والولاء مسألة معنوية تتمظهر في الأقوال والأفعال. وعلى هذا النحو فإنها ليس فكرة محورية لدى الشيعة وحدهم، بل لدى كل المذاهب والاتجاهات، والاختلاف هو حول موضوع الولاية.

يعني الوَلاء للإمام من وجهة نظر شيعية الالتزام بتعاليمه، وتعاليمه ليست شيئًا آخر غير تعاليم القرآن والنبي. ولأجل ذلك يؤكد أئمة أهل البيت أنَّ الولاء لهم هو ولاء للنبي وطاعة لله. إنَّ القرآن مثلاً «حمال وُجوهٍ» لأنَّه يمكن أن يُفسَّر بطرق متعددة، قد تكون متناقضة. فكما يتضمن المحكم الذي لا يحتمل أكثر من معنى واحد، يتضمن المتشابه الذي يحتمل أكثر من معنى بحسب طبيعة الآية التي تتضمن المجمل والظاهر. والقادر على تحديد معاني القرآن بعلم هو الإمام.

وعلى هذا النحو، لا معنى لما قاله المستشرق الفرنسي (دومينيك سورديل) (١٩٢١-٢٠١٤) إنَّ فكرة الإمامة دخلت التشيُّع انطلاقًا من فكرة فساد العالم الذي لا يصلحه سوى الإمام حين يظهر[٢].

---

١ - هنري كوربان: الشيعة الاثنا عشرية، ص١٩٦.

٢ - دومينيك سورديل: الإسلام، ص٧١.

ليســت فكرة الإمامةِ دخيلةً على التشيُّع، بل هي فكرة قرآنية في العمق، وقد ذكــر القرآن مُفردة الإمامة ومشــتقاتها اللغوية اثنتــي عشرة مرة، وهذا هــو عدد الأئمــة. وأطلق النبي على عليّ لقب الإمــام في حياته[1]، وأعلنه إمامًا للأمة في مواقع كثيرة أشهرها: غدير خم عند العودة من حجة الوداع. واعتبر الولاء له ولاءً لله ولشخصه هو باعتباره نبيًّا.

يعتقــد المســتشرقون أنَّ وجهة نظــر الأكثرية السُّــنية هــي التي تمثل الإســلام، وهم يحاكمون الفرق الأخرى من خلال منظورها. فليس القرآن وتعاليم النبي هــي المقياس في نظرهم بل الأكثرية، رغم أنَّ موقف القرآن مــن الأكثريــة كان دائمًا ســلبيًّا. وبوصلة هــذه المحاكمــة تختلف عندما يحاكمون الإسلام ذاته فينظرون إليه من موقع يهودي أو مسيحي أو مادي. أي أنهم يحاكمون التشــيُّع من منظور سُــني، بينما يحاكمون الإسلام على أساس خلفياتهم الدينية أو الأيديولوجية.

لا يجعل الشــيعة الإمامَ أهــم من النبي، ولا يعتــبرون أحدًا من الأئمة أسمى من النبي كما يقول (سوريل)[2]. فقد كان الإمامُ عليّ مثلاً يقول: «أنا

---

١ - روى الحاكم حديثًا صحيحًا في المســتدرك على الصحيحين، برقم ٤٧٢٣: قال رســول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أُوحي إلي في علي ثلاث: أنه سيد المسلمين، وإمــام المتقين، وقائــد الغر المحجلين». وانظر: ابن عســاكر: تاريخ دمشــق، ج٤٢، ص٣٠٣، ح٨٨٣٦. وابن المغازلي: المناقب، ص١٠٥، ح١٤٧.

٢ - دومنيك سورديل: الإسلام، ص٧١.

عبدٌ من عبيد محمد»[١]. وبديهي أنَّ شيعته يلتزمون بما يقول ولا يقدمون على النبي أحدًا. وإذا كان الشيعة يعتمدون روايات الأئمة فلأنَّ ما يقوله الأئمة ليس إلا قول النبي وقد نقلوه نصًّا أو معنىً. إنَّ النبي إمام أيضًا، وإمامته تأتي في مرتبة أعلى من نبوته، فقد أصبح إبراهيم مثلاً إمامًا في آخر حياته بعد أن كان نبيًّا ورسولاً. والقول بأنَّ مقام الإمامة أعلى من مقام النبوة لا يعني أنَّ أئمة أهل البيت عليهم السلام أعلى مقامًا من النبي صلى الله عليه وآله، لأنَّ النبي إمام هو أيضا فوق كونه نبيًّا ورسولاً.

سَابِعًا: الإِمَامُ الأَخِيرِ

الإِمَامُ المهديُّ هو الإمام الأخير في سلسلة الأئمة الاثني عشر. فهو محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين «أخي الحسن» بن علي بن أبي طالب. والإمام المهدي الذي ولد سنة ٢٥٥ ه، غاب عن الأنظار صبيًّا، ولن يظهر لعامة الناس إلا بعد ظهوره.

يخلط بعض المستشرقين بين مفهوم الظهور ومفهوم الرجعة ويجعلها بمعنى واحد، مدعيًا أنَّ (عبد الله بن سبأ) هو من طرح مسألة الرجعة[٢]،

---

١ - الكليني: الكافي، ج١، ص٩٠.

٢ - غولدتسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ص١٩١.

وهـو كلام طالمـا كرره خصوم الشـيعة، دون أن يكون له أسـاس علمي. فـ(عبـد الله بن سـبأ) يبدو شـخصيةً وهميةً لا يمكن إثبـات وجودها في المدونـات التاريخية. ظهر فجأة في روايات (سـيف بـن عمر) التي نقلها الطبري في تاريخه وهو شخص متهم بالكذب، ثم اختفى فجأةً.

إنَّ مـا ذهب المسـتشرق (إغنـاس غولدتسـيهر)، في كتابـه «العقيدة والشريعـة في الإسـلام» عندمـا كتـب: «لا بدّ من تأسـيس فكـرة الآمال الصامتة لتهدئة روع الناس، ومن أجلى مظاهر فكرة الآمال الصامتة مسـألة المهدي»[1]، تدحضه الوقائع التاريخية. وما قاله المسـتشرق (فان فلوتن) في كتابه «السيادة العربيّة»: «ولا يفوتنا أن نذكر أوّلًا أنّ ذلك المثل الأعلى للعدالة والمساواة قد ظلَّ وهمًا من الأوهام، حتّى إنَّ حاجة الشرقيّين اليوم إلى مهـدي يمـلأ الأرض عدلاً لم تكـن أقلّ منها في عهد بنـي أميّة، ولم يكن جَوْر النظام العباسي وعسـفه منذ قيام الدولة العباسيّة بأقلّ من النظام الأموي المختلّ، فحفَّز النفوس إلى التمسّـك بعقيدة المهدي والتطلّع إلى ظهوره لتخليصها من قسـوة ذلك النظام الجديد وجوره»[2]، هذا القول لو كان صحيحًا فإنَّه ينطبق أيضًا على مشيح اليهود.

لا يؤمـن الشـيعة وحدهـم بظهـور الإمام المهـدي في آخـر الزمان.

---

١ - غولدتسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ص٨٥.

٢ - فلوتن: السيادة العربيّة والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية، ص١٣٢.

ويعترف بعض المستشرقين «أن السُّـنة يؤمنون أيضًا بالمهدي ولكن ليس عقيدة دينية»[١]. والإيمان بالمهـدي دون الإقرار بالإمامة أصلاً من أصول الديـن يعكس حالةً من الانفصام. فمن جهـة هناك كم هائل من الروايات الصحيحـة في مدوناتهم عن الإمام المهـدي لا يمكن إنكارها، ومن جهة أخرى اعتبروا الإمامة مسألة فرعية ولا يمكن جعل المهدي امتدادًا تاريخيًّا لسلسة الأئمة بداية من الإمام علي.

يتفق المسـتشرقون في محاولة تأصيل المعتقدات الإسلامية والشيعية خاصـة في معتقدات الديانـات القديمة، بينما لا أحد يقـول إن المهدوية عقيدة شـيعية خالصة، فهي حاضرة بقوة في المصادر السُّنية أيضًا، وتوجد آيـات قرآنية وروايات حديثية متواترة في شـأنها، سـيتم التوقف عندها في الفصل التالي.

لم تخضع عقيدة المهدوية لدى الشـيعة لمؤثرات خارجية أو تاريخية، وهي عقيدة أصيلة في القرآن والسنة. والأنبياء السابقون كما كانوا يبشرون بخاتـم الأنبياء كانوا يبشّرون أيضـا بخاتم الأوصياء[٢]، وهو سـبب كاف

---

١ - غولدتسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ص١٩٥.

٢- في سـفر يوحنـا ١٤: ٦-٧، وردت الإشـارة إلى الإمام المهـدي وترجمتها: "ثم رأيت ملاكًا طائرًا في وسـط السـماء معه بشارة أبدية ليبشر الساكنين على الأرض وكل أمة وقبيلة ولسـان وشعب. مناديا بصوت عظيم: خافوا الله وأعطوه مجدًا لأنَّه قد جاء ساعة حكمه".

لوجـود فكرة المنقذ والمخلص في رسـالات الأنبياء كما هي حالة موسى وعيسى. والمعقول أن تقتبس الأديان الوضعية من الأنبياء مفهوم المهدوية والخلاص وتضمه إلى منظومتها.

الفَصْلُ الثَّانِي:
صُورَةُ المَهدَوِيَّةِ فِي السَّرْدِيَّةِ الاِستِشرَاقِيَّةِ

لا يتعلـق البحـث في مفهوم المهدوية بالماضي، بـل يعكس اهتمامًا بالمسـتقبل، بعد أن فشـلت الإنسـانية -حتى اليوم- في اجتراح المداخل السليمة لإنقاذ نفسـها من التخبط في الظلم والفساد والاستبداد. والبحث في الموضـوع المهـدوي يُقابـل البحث في فكرة الخـلاص في الديانات الأخـرى. لكـنَّ البحث في مفهوم المهدوية لا يسـتغني عـن البحث في أصول هذا الاعتقاد وجذوره الدينية حيث لا يمكن الانفصال عن الماضي في أي عملية بناء حضاري.

ترتبط المهدوية بظهور شخصية استثنائية في نهاية الزمان، تُحرر الإنسانية وتنشر السـلام والعدالة والرخاء، وتنقل المجتمعات من التخبط والاعتباط والوثنية والإلحاد إلى العلم والمعرفة والإيمان. وإذا كان الاستشراق يتوزع إلى أصناف متعددة، بعضها مسـيحي وبعضها يهودي وبعضها مادي، فإنَّه يتفق في إنكار المهدوية تمامًا كما أنكر قبل ذلك نبوةَ محمد صلى الله عليه وآله. أهمل الاستشراق بكل اتجاهاته النُّصوص الإسلامية في القرآن والسنة الخاصّة بالمهدوية، وادَّعى أنها عقيدة يهودية ومسيحية أدخلها الشيعة إلى الإسلام بسبب مُعاناتهم من بطش الأمويين وبحثهم عن الخلاص.

ومن المهم التوقف عند تلك المواقف الاستشراقية ومناقشتها، وتقديم

الأدلة القرآنية والروائية التي تؤكد أصالة العقيدة المهدوية وأساسها داخل مفهوم الإمامة، باعتباره الأصل العقائدي الذي تفرعت عنه. يبقى القرآن النص المركزي الأول في الإسلام الذي تحتاج المعتقدات الإسلامية إثبات نفسها من خلاله. والنص المركزي الثاني هو السنة بمفهومها الشامل، وهو أكثر وضوحًا واتساعًا في عرض مفهوم المهدوية.

المَبحَثُ الأَوَّلُ:
جُذُورُ المَهدَوِيَّةِ فِي الاِستِشرَاقِ اليَهُودِيّ

تُنكر الدراسات الاستشراقية اليهوديّة أصالة العقيدة المهدويّة وواقعيتها في الإسلام. وهناك تياران في هذا المستوى: الأول ينسب المهدوية إلى الأديان السابقة. والثاني يعتبرها مجرد خرافة.

أَوَّلًا: التَّشكِيكُ فِي أَصَالَةِ العَقِيدَةِ المَهدَوِيَّةِ

يذهب الاستشراق إلى أنَّ الفكرة المهدوية واردة من الديانات السابقة. ويقول المستشرق اليهودي (جيمس دارمستيتير James Darmesteter) (١٨٤٩-١٨٩٤م) في كتابه "المهدي الماضي والحاضر"، "إنّ المهدويّة الإسلاميّة خرافة، وأنَّ أصلها ومنبعها التراث الديني اليهودي"[١]. فبالنسبة

1 - The Mahdi Past and Present, P11- 15.

إليه، نجد فكرة المنقذ والمخلّص قبل الإسلام عند ديانات سابقة، وقد أخذ المسلمون الفكرة من الديانات الثلاثة: اليهوديّة والمسيحيّة والزرادشتيّة، وهذا يعني أنَّ عقيدة المهدويَّة في الإسلام ليست أصيلة. وتَبنَّى هذا الزعم المستشرق (فيليب هيتي) (١٨٨٦-١٩٧٨) في بحثه عن «المهدي» الذي كتبه في دائرة المعارف الكاثوليكيّة الأمريكيّة، إذ يقول: «إنَّ المهدي عند الشيعة ما هو إلا انعكاس للمعتقد اليهودي والمسيحي»[1].

نسي هؤلاء المستشرقون أنَّ فكرة الخلاص سابقة أيضًا على اليهودية، فهي قائمة في الديانات الشرقية القديمة. إنَّ البرهمانية مثلاً -والتي تعتبر أم الديانات الوثنية- تعتقد بظهور مُخلص في نهاية الزمان، بعد أن يعمَّ الفساد والظلم الأرض، وهذا المخلِّص هو المعبود (كريشنا) الذي يقولون إنه ينزل في صورة بشرية ليُخلِّص الأرض من الظالمين وينشر العدل بين الناس، فهو بطل ملحمة المها بهارتا. ولذلك يصف الهندوس (كريشنا) بأنه الفادي، والمُعزّي، والراعي الصالح، والوسيط، وابن الإله الذي ولد من العذراء (ديفاكي).

وفي هذه الحالة يصبح (جيمس دارمستيتير) و(فيليب هيتي) مطالبان بتفسير هذا التشابه بين المُعتقد البرهماني والمعتقد اليهودي بخصوص ظهور مخلص أو منقذ في نهاية التاريخ يدَّعي أنَّه ابن الإله أو أنه الإله نفسه. تنقلب الصورة في هذه الحالة وتصبح اليهودية هي التي نقلت

1 - Al-Mahdi: in New Catholic Encyclopedia, Volume 9, P48.

معتقدات برهمانية!

والحقيقة أنَّ فكرة الخلاص والمهدوية كانت حاضرةً في كل الرسالات النبويـة منذ آدم وإبراهيـم. فقد كان الوحي يخبرهم بأحداث المسـتقبل، ويُعرفهم على الأنبياء والأوصياء الذين سـيأتون من بعدهم. ومن الطبيعي أن تتـسرب تلـك الأخبـار إلى الوثنيـين ويدخلونهـا في معتقداتهـم بعد التلاعب بها. وهذا الأمر يتأكد في شـأن النبـي الخاتم وأوصيائه، وصولاً إلى خاتم الأوصياء.

لم يكـن الإسـلام غافلاً عـن تلك الإشـارات وأجاب عـن أنَّ الأنبياء السـابقين أخبروا بكثـير من الأحداث المسـتقبلية التي تشـمل الرسـالة الخاتمـة والإمـام المخلص في نهايـة الزمان، كما هي الإشـارة إلى ذلك في الآية الكريمـة: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة:٣٧]. فعن المفضل بن عمر عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السـلام قال: «سـألته عن قول الله عز وجـل: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَـاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ..**﴾[البقرة: ١٢٤]، ما هـذه الكلمات؟ قال: هي الكلـمات التـي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه وهو أنه قال: يا ربِّ أسـألك بحقّ محمد وعلي وفاطمة والحسـن والحسـين إلا تُبت عـليّ، فتابَ الله عليـه، إنه هـو التّواب الرحيم، فقلت له: يا ابن رسـول اللـه فما يعني عز وجـل بقوله: ﴿أَتَمَّهُـنَّ﴾؟ قال: يعني أتمهن إلى القائم عليه السـلام، اثْنا عشر إمامًا، تسعة من وُلد الحسين عليه السلام. قال المُفضل: فقلت له: يا

ابن رسـول الله فأخبرني عن قول الله عـز وجل: ﴿**وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ...**﴾[الزخرف:٢٨] ؟ قال: يعني بذلك الإمامة، جعلها الله في عقب الحسين إلى يوم القيامة»[١].

لم يكتفِ المسـتشرق)جيمس مسـتيتير(في كتابـه «المهدي الماضي والحاضر» بجعل المهدوية اقتباسـا شـيعيًّا من اليهودية، بل زعم أنَّ النّبي لم يخلف أبناءً ذكورًا لإنكار وجود مهدي ينتسب إلى النبي صلى الله عليه وآله[٢]. وهذا الموقف لا يقبله السُّـنّة والشـيعة على السواء. وهم مُتفقون عـلى أنَّ المهدي من عترة النبـي صلى الله عليه وآله. فالحفيد لا يجب أن يكـون من الولد الذكر فحسـب، بل قد يكون من البنـت أيضا، والمهدي هو حفيد النبي وسـبطه من فاطمة عليها السـلام. فأولاد البنات هم أحفاد وأسباط ولا أحد يمكنه إنكار ذلك.

وقد سمّى النبي الحسين سبطًا من الأسباط، لأنَّ السّبط هو الحفيد من البِنـت، كما قد يكـون الحفيد من الابن. وهو يُمثل امتـدادًا ماديًّا ومعنويًّا للرجل. فالفعل سَـبُط تعني طال واسترسـل. وبذلك يمثل الإمام الحسين امتـدادًا للنبـي ليس فقط من الناحيـة المعنوية التي تشـمل الدين والعلم والأخلاق والثقافة، بل أيضًا من الجانب النَّسَـبي حيث، ينحدر السبط من

---

١ - الصدوق: معاني الأخبار، ص٣٠٥.

2 - James Darmesteter: The Mahdi Past and Present, P16.

أجـداده من أبيه وأمه حيث يرث عنـه خصائصه البدنية أو بعضها. وفي آية المباهلـة قال تعالى: ﴿**فَمَنْ حَاجَّـكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَـاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَـدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ**﴾[آل عمران: ٦١]، فجاء بالحسـن والحسـين، مع عـلي وفاطمة عليهم السـلام. والمهدي هو آخـر العنقود في سلسـلة الأئمة التسـعة من ذرية الحسين، فالرسـول جدّه كما هو جدّ الحسين.

وإنكار أن يكون المهدي من ذرية النبي، يُساوق إنكار أن يكون المسيح من ذرية إبراهيم وإسـحاق ويعقوب، لأنَّ المسـيح إنّما ينتسـب لإبراهيم ويعقوب من جهة أمّه مريم، وهي أيضًا حفيدة لسـليمان بن داود[1]. وهذا في الحقيقـة مـا فعله اليهود مع المسـيح الـذي اتهموه بمختلـف التُّهم، وأنكروا انتسابه ليعقوب وداود، ثم حاولوا قتله.

ويدَّعي المسـتشرق (مسـتيتير) أنَّ المهدوية لم تتحقَّـق في كل البلاد الإسـلامية، مـما يطرح شـكوكًا حول نبـوة محمد صـلى الله عليـه وآله

---

١ - في الآية الكريمة: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ. وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ. وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ**﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٥]. فنسب عيسى إلى داود من جهة أمه.

وصدقـه[١]. وهذا الكلام قد يصح، لو كان النبي قد حدّد وقتًا مُعيَّنا لظهور الإمام المهدي عليه السـلام، بينما هو في الحقيقة لم يحدد أي وقت. ولا يمُكن القول، تبعًا لذلك، إنَّ نبوته أصبحت محلَّ شـكٍّ. وحتى لو كنا في آخـر الزمان الذي يظهـر فيه الإمام، فإنَّ آخرَ الزمان هـذا لم ينته، لأنّه إنما ينتهي بحرب عُظمى، وتحقُّق سائر العلامات[٢].

وقد لجأ المسـتشرق (فيليب هيتي) في بحثه عن «المهدي» إلى رواية ضعيفـة ومصنوعة لتبريـر هذا الإنـكار، إذ يقول: «هناك رواية تُشـير إلى كون عيسى عليه السـلام هو المهدي نفسـه»[٣]، بينما يسـقط المستشرق (دونلدسن) في فخ الاسـتهزاء بعقيدة المهدوية من خلال قصّة السرداب، كما في كتابه «عقيدة الشـيعة»[٤]، بينما تُوجد نصـوصٌ كثيرةٌ تؤكد اختفاء

---

1 - The Mahdi Past and Present: Translator's Preface – Ada S. Ballin, Page 4.

٢ - روى البخاري، ح٧١٢١، عن النبي صلى الله عليه وآله: «لا تقوم السـاعة حتى تقتتـل فئتان عظيمتـان، يكون بينهما مقتلـة عظيمة، دعوتهما واحـدة». وفي «الغيبة» للطـوسي، ج١، ص٣٦١: عـن الإمام الصادق عليه السـلام «لا يكون هذا الأمر حتى يذهـب ثلثا الناس، فقلنا إذا ذهب ثلثا الناس فمـن يبقى؟ فقال: أما ترضون أن تكونوا في الثلث الباقي».

٣ - فيليـب هيتي: دائرة المعارف الكاثوليكيّـة الأمريكيّة – لفظة (المهدي)، المجلّد ٩، ص٤٨.

٤ - دونالدسون: عقيدة الشيعة، ص٢٤٧ و٢٤٨.

الإمـام المهدي، وهو لا يزال صبيًّا، في هذا المـكان أثناء ملاحقة الجنود العباسيين له.

لا تصمد رواية «لا مهدي إلّا عيسى ابن مريم»[١]، فهي خبر أحاد ضعيفة السّـند، وبتطبيـق قاعدة التعارض بين الأدلة عليها تسـقط أمـام الروايات الصحيحـة والمتواترة عـن الإمام المهدي لدى جميع الفرق الإسـلامية. فالمهـدي عليه السـلام من عترة النبيّ محمّد صلى اللـه عليه وآله من ولد فاطمة، كما تقول الروايات المتواترة عند السُّـنة والشيعة ومنها: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة»[٢].

ثَانيًا: إِنكَارُ الحَقِيقَةِ المَهدَوِيَّة

يدَّعـي هذا التيار أَنَّ المهدوية اختراع شـيعي لا أسـاس له في الأديان، وهي ليست وحيًّا، بل هي انعكاس لواقعٍ نفسي واجتماعي تعرض له الشيعة في التاريخ. فقد قال المسـتشرق (دوايت دونلدسون) (١٨٨٤-١٩٧٦) في كتابه «عقيدة الشيعة»: إنّ «الإخفاق الذي أصاب الحكومة الأمويّة في توطيد

---

١ - ابن ماجه: السـنن، ج٢، ص٣٤٠، ح٤٠٣٩، وقد ضعّف علماء الجرح من أهل السنة هذا الحديث الغريب، وقدحوا في أحد رواته: محمّد بن خالد الجندي.

٢ - أبـو داود: سـنن أبي داود، ح٤٢٨٤، وابـن ماجه: سـنن ابـن ماجة، ح٤٠٨٦، الألباني: صحيح الجامع، ح٦٧٣٤.

أركان العدل، هو المنشأ لظهور فكرة المهدي»[١]، وزعم (دونلدسون) «أنّ روايات المهدي موضوعة في عصر ما قبل تدوين السنّة النبويّة، وأنَّ الكتب الروائيّة السُنّية قد خلت من هذه الروايات»، و«إنّ سرّ وضع الحديث عند الشيعة، هو أنّ القرآن لم يذكر الإمام فاستغلّوا السُّنّة لذلك»[٢].

وقال (غولدتسيهر): «إن الاعتقاد بمفهوم المهدوية يعود بجذوره إلى عناصر يهودية ومسيحية، ويمكن العثور فيه على بعض خصائص سوشيانت، الذي يعتقد به الزرادشتيون»[٣]. وعند التحقق من مصداقية ما يقوله هذان المستشرقان، نجد أنَّ الكتاب المقدّس للزرادشتيين يقسم إلى قسمين هما: الأفستا القديمة والأفستا الجديدة، والأفستا القديمة، وهو القسم المعروف بأنَّه من أناشيد زرادشت لا نجد أثراً لسوشيانت بمعناه الخاصّ[٤]. بل إنَّ زرادشت سمى سوشيانت بمعنى النافع والمفيد، فهو إذا لقب. وهذا المعنى يتكرر في الأفستا الجديدة، ليشير إلى القادة الذين يعملون لخدمة الناس[٥].

---

١ - دونالدسون: عقيدة الشيعة، ص٢٣١.

٢ - دونالدسون، عقيدة الشيعة، ص٢٣١.

٣ - غولدسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ص٢٢٨.

٤ - رسول رضوي وأحمد جمشيديان: تأثُّر العقيدة المهدوية بسوشيانت عند الزرادشتيّة (قراءةٌ نقديّة)، نصوص معاصرة، بيروت، نوفمبر ٢٠٢٠.

٥ - رسول رضوي وأحمد جمشيديان: تأثُّر العقيدة المهدوية بسوشيانت عند الزرادشتيّة (قراءةٌ نقديّة)، نصوص معاصرة، بيروت، نوفمبر ٢٠٢٠.

و«خلافاً لـ «الأفستا» تمّ طرح مفهوم الموعود في النصوص المتأخّرة، مثل: الـ ‘رندوهومن يسن’ والـ ‘جاماسب نامه’ وغيرهما على نحوٍ واسع للغاية، مع إضافة بعض الأغصان والأوراق عليها. كما نلاحظ هذا الأمر في سائر الكتب والنصوص الزرادشتية بشكلٍ أو آخر، ومن هنا ندرك أنَّ الاعتقاد بسوشيانت لا يمكن نسبته إلى زرادشت، وإنَّما هو من التعاليم التي ظهرت في النصوص والمصادر الزرادشتية المتأخّرة»[1].

ومن ناحية أخرى، يجب القول إنَّ الأديان السابقة احتفظت ببعض العناصر الصحيحة بما أنها أديان توحيدية بالأساس. فالمجوسية هي أيضا ديانة توحيدية في جذورها وتعرضت للتغيير والتحويل كما تعرضت كل الرسالات التوحيدية الأخرى، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله: «إنَّ المجوس كان لهم نبي فقتلوه، وكتاب أحرقوه، أتاهم نبيهم بكتابهم في اثني عشر ألف جلد ثور»[2]. وإذا سلمنا بوجود فكرة المخلص في الزرادشتية القديمة فإنَّ ذلك لا بد أن يكون من بقايا التعاليم النبوية التي لم تتعرض للحذف أو التبديل في هذا الدين.

إنَّ المهدوية عقيدة إسلامية وليست خاصة بالشيعة. ولو كانت فكرة شيعية محضة، لما وجدنا لها أثرًا في كُتب أهل السُّنة ومُدوناتهم، رغم

---

١ - رسول رضوي وأحمد جمشيديان: تأثُّر العقيدة المهدوية بسوشيانت عند الزرادشتيّة (قراءةٌ نقديّة)، نصوص معاصرة، بيروت، نوفمبر ٢٠٢٠.

٢ - الكليني: الكافي، ج٣، ص١٦١.

أنهم يقدِّسون مُؤسس الدولة الأموية الذي يعرف الجميع موقفه من الإمام علي وأولاده وشيعته. فكُتب الحديث والتفسير السُّنية تضم أخبارًا متراوحة بين الصحيح والحسن والموثوق وغير ذلك عن الإمام المهدي فاقت الأربعمئة حديث، تتحدث عن خروج الإمام وتعميمه للعدل والرخاء بين الناس. ومن هذه الأحاديث أربعون حديثًا مروية بطرق متعددة، مما يجعل المسألة في دائرة التواتر.

لم يكن هناك وجود للحكم الأموي عندما صدرت هذه الأحاديث عن الرسول صلى الله عليه وآله ولم تكن هناك قوة شيعيَّة قادرة على اختراع كل تلك الأحاديث والروايات التي تتحدث عن ظهور المهدي في آخر الزمان وتجعله من المحتوم. فمن غير الممكن أن تكون كل تلك الأحاديث -على كثرتها- موضوعة، خاصة وأن السلطة التي انتقلت بعد الرسول إلى قريش والأمويين، كانت معاديةً لأهل البيت وعقيدة المهدي من الأساس.

وهذا يعني أنَّ الأحاديث حول المهدي أكثر من ذلك بكثير، ورغم محاربتها إلا أنها وصلت إلى الناس جيلاً بعد جيل. إننا نجد مثلاً في موسوعة "معجم أحاديث الإمام المهدي" ما مجموعه ١٨٦١ حديثًا متعلّقة بالمهدي عليه السلام، استخرجت من مصادر مختلفة. ولذلك، فإنَّ القول: إنّ فكرة المهدي خرافة من صنع خيال الشيعة، لا أساس له. والصحيح أنَّ التشكيك في صحة روايات المهدي مجرد عناد للحقيقة العلمية، وقد يعكس رُهابًا حقيقيًّا بسبب ما تمثله هذه العقيدة.

يتفق الشيعة وأهل السُّنة على ظهور الإمام المهدي في نهاية الزمان وتُحمّله مهمة إنقاذ المسلمين والعالم كله من الظّلم والجَوْر. وقد اعترف (ابن خلدون) (١٣٣٢-١٤٠٦م) بأنَّ بعض الأحاديث الخاصة بالمهدوية لدى أهل السُّنة صحيحة. وقال شيخ الأزهر الاسبق (محمد خضر حسين) (١٨٧٦- ١٩٥٨م) ردّا على (ابن خلدون): "ونحن نقول: متى ثبت حديث واحد من هذه الأحاديث وسَلِم من النقد، كفى في العلم بما تضمنه من ظهور رجل في آخر الزمان يسوس الناس بالشرع ويحكمهم بالعدل، إذ أريناك أنَّ مسألة المهدي لم تكن من قبيل العقائد التي لا تثبت إلا بالأدلة القاطعة".

والصحابة الذين رُويت من طرقهم أحاديث المهدي نحو ٢٧ صحابيًّا منهم: (أبو سعيد الخدري، وعبد الله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وأبو هريرة، وأنس بن مالك، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وأم سلمة، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعمار بن ياسر، والعباس بن عبد المطلب، وتميم الداري، وابن عباس) والواقع أنَّ أحاديث المهدي بعد تنقيتها من الموضوع، والضعيف القريب منه، فإنَّ الباقي منها لا يستطيع العالم الباحث على بصيرة أن يصرف عنه نظره، كما يصرفه عن الأحاديث الموضوعة.

وقد صرّح الشوكاني، بأنَّ هذه الأحاديث بلغت مبلغ التواتر، فقال: "والأحاديث الواردة في المهدي التي أمكن الوقوف عليها -منها خمسون- فيها الصّحيح والحسن والضعيف المُنجبر، وهي متواترة بلا شك، بل

يصدق وصف التواتر على ما دونها على جميع الاصطلاحات المحررة في الأصـول". وأضاف "يقول بعض المنكريـن لأحاديث المهدي جملة: إنَّ هذه الأحاديث من وضع الشـيعة لا محالة. ويرد هذا، بأنَّ هذه الأحاديث مرويـة بأسـانيدها، ومنها ما تقصّينا رجال سـنده، فوجدناهـم ممن عُرفوا بالعدالـة والضبط، ولم يتّهمهم أحد من رجال التعديل والتجريح بتشـيُّع، مع شهرة نقدهم للرجال".[1]

المَبحَثُ الثَّانِي:
الاِستِشرَاقُ المَسِيحِيُّ وَالوُجُودُ المَهدَوِيُّ

كان تركيـز المُسـتشرقين المسـيحيين مُنصبًّـا على دراسـة النصوص الإسـلامية مثـل القـرآن والأحاديث، بالإضافـة إلى النصـوص التاريخية والأدبيـة، لفهم الأصول والتطورات المتعلقة بمفهـوم المهدوية. وتناولوا قضية الإمام المهدي عليه السلام من عدَّة جوانب، منها: مسألة وجوده من عدمها، والأسـاس الذي بُنيت عليه القضية المهدوية، كما ناقشـوا مسألة ولادته والظرف السـياسي الذي رافق ذلك. وتحدثوا عن الغيبتين الصغرى والكبرى وعن السفراء الأربعة والأدوار التي أُوكلت إليهم.

---

١ - الشوكاني: موسوعة الأعمال الكاملة، ج١، الصفحات: ١٦٨-١٦٩- ١٧٠.

أَوَّلًا: الولَادَةُ المَهدَوِيَّةُ

خضع الموقف الاستشراقي المسيحي من الوجود المهدوي للتشكيك والإنكار. فكرّس الباحثون الغربيون جهودهم على إنكار وجود الإمام دون الاستناد إلى أدلة. كتب المستشرق (رودولف شتروثمان Strothman) (١٨٧٧-١٩٦٠): "من المشكوك فيه كل الشك أنَّ الحَسن الخالص، وهو الإمام الحادي عشر، قد خَلَّفَ ولدًا على الإطلاق لمَّا مات عام ٢٦٠هـ -٨٧٣ م، لكن ساد بين الشيعة الإمامية الاعتقاد بوجود ابن له هو محمد حُجة الله"[١]. فهو يستبعد تمامًا ولادته، أو أن يكون للإمام العسكري وَلد، ووجوده عنده ليس إلَّا اعتقادًا لدى الشيعة الاثني عشرية.

واختار المستشرق الألماني (إسرائيل فردناندIsr.Friedländer) (١٨٧٦-١٩٢٠م) الذهاب في الاتجاه نفسه، فتحدث عن ولادة أسطورية وذات إشكالية كبيرة، مدعيًّا أنها حدثت في اليوم نفسه الذي تُوفي فيه والده الإمام الحسن العسكري عام ٢٦٠هـ[٢]. ولم يختلف موقف المستشرق الألماني المعاصر (هاينز هالم Heinze Halm) من ولادة الإمام[٣]. وهو يعتمد في إنكارها نصوصًا سُنّية، بما أن الاستشراق عامة يتبنّى الاتجاه السُّني ليُهاجم المعتقدات الشيعية من خلالها، لكنه يقع بذلك -من ناحية أخرى- في إنكار

---

١ - دائرة المعارف الإسلامية: الشيعة، ج٢٠، ص٦٤٢٢.

2 - Heterodoxies of the Shiites, p13.

٣ - هالم، هاينس، الشيعة، ص٤٥-٤٧.

مسلمات وحقائق إسلامية تُؤكدها نُصوص صحيحة لدى الفريقين.

إنَّ (هـالم) عندمـا يقول إنّ فكرة المهدوية من اختراعات رواة الشـيعة الأوائل، يذكر رواية أوردها (النوبختي) ت٣١٠ه في كتابه «فرق الشـيعة»، مفادها أنَّ الإمام العسـكري عليه السـلام مات ولم يخلِـف أي ولدٍ يرثه، ولذلـك ورثه أخوه جعفر[١]. لكـنَّ (النوبختي) روى ذلك الخبر ولم يتَبنَّه، فقـد روى روايـات كثيرة أخـرى في كتابه عن ولادة الإمـام المهدي عليه السلام. ولذلك، فإنَّ الأرجح هنا أن يكون الإمام العسكري قد أخفى خبر ولادة الإمام عن السـلطان العباسي خوفًا عليه من القتل، وسوف يظهر في آخر الزمان إمامًا قائدًا للمسلمين كما تقول الروايات[٢].

وذهـب المسـتشرق الألمـاني (غيرهـارد كونسـلمان Konzelman) (١٩٣٢-٢٠٠٨م) إلى سرد الأحداث التي سـبقت الولادة وما جرى على الإمامين الهادي والعسـكري عليهما السلام لإنكار ولادة المهدي. وروى قصة زواج الحسـن العسـكري من الأميرة البيزنطية. ثم شكّك في مجمل القصة، وادَّعى أنَّها أسـطورة من نسـج خيال مؤرِّخي الشيعة، الذين أرادوا منها إقناع الناس بمسـار الأحداث التي من شـأنها إثبات إمامة محمد بن الحسن الإمام الثاني عشر[٣].

---

١ - النوبختي، فرق الشيعة، ص٩٩.

٢ - النوبختي: فرق الشيعة، ص٤٧.

٣ - غارهارد كونسلمان: سطوع نجم الشيعة، ص١٠٧.

تثبت الكُتب الشيعية التفاصيل الخاصة بولادة الإمام ونسبه[١]، وهي تتضمن الكثير من الروايات الصحيحة[٢]. وكثرة الروايات ترفعها إلى مستوى التواتر. ومن المناسب في هذه الحالة أخذ بعض التفاصيل الخاصة بولادة الإمام من المصادر التي نوَّه بها النبي صلى الله عليه وآله في حياته عندما أحال الناس من بعده إلى عترته. ولا جدال بين المؤرخين والرواة حول علم الأئمة الإثني عشر وتقواهم وجلالتهم، والأحرى الأخذ عنهم فيما يقولونه أو يروونه عن رسول الله.

والشيعة ليسوا وحدهم في ذلك، بل إنَّ هناك مصادر سُنية تتحدث عن ولادة الإمام المهدي، عندما تتحدث عن غَيْبته. روى ابن الصباغ المالكي، قال: «وله قبل قيامه غَيْبتان: إحداهما أطول من الأخرى. فأمَّا الأولى فهي القُصرى، فمنذ ولادته إلى انقطاع السفارة بينه وبين شيعته. وأما الثانية، وهي الطُّولى، فهي التي بعد الأولى. في آخرها يقوم بالسيف. قال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾[الأنبياء: ١٠٥]»[٣].

ثَانِيًا: حَقِيقَةُ المُصَاهَرَةِ

قال المستشرق (كونسلمان) إنَّ الشيعة أرادوا إثبات وجود علاقة

---

١ - الطوسي: الغيبة، ص٤١٤. الصدوق: كمال الدين وتمام النعمة، ج٢، ص٤١٨.
٢ - راجع مثلا: علي الكوراني: معجم أحاديث الإمام المهدي.
٣ - ابن الصباغ: الفصول المهمّة في معرفة الأئمة، ص٣١٨.

مصاهـرة بين عيـسى ومحمد صلوات اللـه عليهما، ليكـون ذلك مقدمة لتوحيد أتباع الرسالتين على الدين الصحيح الذي سيظهره المهدي. وهذه المُصاهـرة تُوحي عنده بأنَّ المسـيح اعترف بعلوِ الإسـلام وأنَّ اتّباعَه هو السـبيل الأصح والأسـلم. ومن ناحية أخرى، أراد مُؤرخو الشـيعة التأكيد على نُبل سـلالة النبـي محمد، من خلال مُصاهرة أنبل أسرة مسـيحية في حينهـا، ليتمّ التوحيد بين الإسـلام والمسـيحية، وبذلـك يُصبح المهدي مخلّصًا لأتباع الديانتين معًا والعالم كله تبعًا لذلك[1].

اعتقد (كونسلمان) أنَّ القصة أسطورة أراد بها المؤرخون الرفع من شأن الإسـلام في مقابل المسـيحية، لكنَّ الحقيقة أنَّ النبي وأهـل بيته والأئمة ليسـوا في حاجة لإثبات شرفهم العائلي من خـلال الزواج بأي امرأة مهما كان نسـبها وأصلهـا. فالنُّبـل خاصّية عائلـة النبي وأهل بيتـه صعودًا إلى إسـماعيل وإبراهيم عليهم السـلام. وهو شيءٌ لا ينكره عربي أو مسلم في تلـك العصور. وقد مدح القـرآن النبي في خُلقه وأهل البيت في طهارتهم، ودعا إلى مودّتهم وطاعتهم في آيات كثيرة. لكننا لا ننفي إمكانية أن تكون تلـك المُصاهرة من أجل اسـتمالة المسـيحيين، كما يمُكـن أن تتعلق من جانب آخر بعودة المسـيح، ليكُون المسـاعد للإمـام المهدي على هداية النصارى.

---

١ - كونسلمان: سطوع نجم الشيعة، ص١٠٨- ١٠٩ .

ثَالِثًا: الغَيبَةُ الصُّغرَى وَالسُّفَرَاءُ الأَربَعَةُ

اضطر الإمام الثاني عشر الذي يمثل الحلقة الأخيرة في سلسلة الأئمة إلى الغيبة، فكانت هناك غيبتان: الأولى سميت صغرى واستمرت حوالي ٧٠ سنة منذ عام ٢٦٠ هـ وحتى عام ٣٢٩ هـ، وكان للإمام فيها أربعة سفراء يمثلون حلقة وصل بينه وبين شيعته. والثانية، هي الغيبة الكبرى التي بدأت عام ٣٢٩ وهي مستمرة إلى الآن.

وذهب (كوربان) بعيدا حين قال: «إنَّ فكرة الغيبة تجعل مستحيلاً كل تكييف اجتماعي وكل تجسيم مؤسس للشيء الديني لأن الرجعة (يقصد ظهور الإمام الغائب) ليست حدثا ينبغي أن يقع في الخارج ذات يوم، فإذا كان الإمام مختفٍ فذلك لأنَّ النَّاس هم الذي أصبحوا عاجزين عن رؤيته»[١].

لم تكن الغَيبة حدثًا منفصلاً عن الواقع في أبعاده السياسية والاجتماعية، بل كانت نتيجة لها. كان الإمام المهدي الإمام الأخير وكانت حياته مهددة من السلطة العباسية التي كانت تظن أنَّ نهايتها ستكون على يديه. ولأجل ذلك استدعت والده وضربت عليه إقامةً جبريةً وراقبت ما يحدث في بيته. وكان لا بد من طريقة لإنقاذ الإمام وإبعاد خطر القتل عنه. ومن الناحية الاجتماعية لم تكن للإمام الحاضنة الاجتماعية القوية التي تحميه

١ - هنري كوربان: الشيعة الاثنا عشرية، ص٥٣.

من الاستهداف. فالشيعة كانوا قليلين حينذاك، ولم يكونوا جميعًا قادرين على حمايته.

لكـنَّ ذلك لا يمنع من القـول إنَّ الناس أصبحوا عاجزين عن رؤيته بشكل ذاتي بسبب المسـافة المعنوية الهائلة التي صارت تفصل الإمام عـن النـاس باعتبارهم كتلة اجتماعيـة. ولا يعني ذلك أنَّـه أصبح كائنًا إلهيًّا، كما يريد أن يلمح. فالاختفاء تقنية سبق أن استخدمها النبي صلى اللـه عليه وآله عندما كانت حياته مسـتهدفة من القرشـيين، فخرج من بينهم وهم لا يرونه. وهذا يعني أنَّ الاختفاء عن الأنظار له مفتاح يملكه الإمـام.

كتـبَ المسـتشرقون الألمـان عن موضـوع الغيبـة والسـفارة، ومنهم المستشرق (شـتروثمان) الذي اعتمد على العديد المصادر الشيعية. وهو يعتبر غَيبة الإمام اختفاءً غامضًا. ويشكُّ في غيبته كما شك في وجوده من الأسـاس، رغم اطلاعه على كتب الشـيعة، ورغم أنه هـو من أشرف على أطروحـة الدكتوراه لـ (جـواد عـلي) (١٩٠٧-١٩٨٧)، «المهدي المنتظر عند الشـيعة الاثنـا عشرية»، في همبورغ سـنة ١٩٣٩، والتي تتحدث عن القضية المهدوية من خلال المصادر الشـيعية. لكن من الواضح أنَّ (جواد علي) كان هو المتأثر بهذا المستشرق وليس العكس، فقد كان بدوره يشك في موضوع النيابة وينسب للسـفراء الأربعة مصلحة في ادّعائها لأنَّ ذلك يجعل لهم وجاهة لدى الشـيعة. وهو يتجاهل في هذا المسـتوى، شهادة

النـاس الذين رأوْه وتوقيعات الإمام عليه السـلام[١]، التي تتضمن إجابات عن أسئلة يصعب على أي سفير امتلاكها، أو بالأحرى يمتنع ذلك.

ونزعة الشـك والإنكار تكررت عند المسـتشرقة الألمانية (فيرينا كليم Verena Klemm) (١٩٥٦م- ؟) وتسـاءلت عن جـدوى الغيبة التي تُثير الشّـك لدى الشـيعة. وقـد اتّضح أنَّ الغَيبـة كانـت ضرورة لحفظ الإمام المهدي إلى أن يحين الوقت المناسب لظهوره.

أما المسـتشرق (مراد ويلفريد هوفمان) فقد استغرب من إصرار الشيعة على عودة الإمام الثاني عشر كي يصلح العالم بعد فساده[٢]، وأنكر ولادته من الأسـاس. وربما كان قليل الاطلاع عـلى المدونة الحديثية بخصوص الإمام لدى الشـيعة والسُّـنة معًـا، حيث تواتر خبره لـدى الفريقين، أو أنه كان خاضعًا لمُسـبقاته الدينية ومزاجه النفسي رغم أنه ادعى الإسلام وترك المسيحية.

وبحسـب المسـتشرق (إسرائيل فردلاندر)، فـإنَّ غيبة الإمـام ووُجود السفراء شيء دخيل على التشيُّع ولا أصالةَ له، وأصوله نجدها في المسيحية لدى الطائفة الدوسيتية Docetic مثلاً، التي تُؤمن بعودة المسيح، والديانة

---

١ - هناك من ادَّعى البابية لنفسه مثل الشريعي والنصيري وابن بلال وآخرين فجاءت التوقيعات بعدم أحقيتهم. أما السـفراء الأربعة فالتوقيعـات تُؤكد أحقيتهم. انظر مثلا: الصدوق: إكمال الدين، ص٤٨٢ و٥٢٢. والطوسي: الغيبة، ص٣٩٧ و٤١٥.

٢ - هوفمان: يوميات ألماني مسلم، ص٨٩.

المانويــة أيام الإمبراطورية الساســانية التــي تؤمن بعودة ماني. فبالنســبة إليهما، نجا عيسى وماني من الصلب، وصُلب غيرهما[١].

لكــنَّ الشــيعة لم يتحدثوا عن صَلب المهدي أو قتلــه، بل تحدثوا عن اختفائه أثناء مداهمة العباســيين لبيت أبيه. كما أنَّهم لا يتحدثون عن رفعه إلى الســماء كــما يُقال عن ماني، أو كــما ما حدث للمســيح. وهذا يعني أنَّ غَيبة المهدي لا تُشــبه رفع المسيح إلى الســماء. وغَيبة الإمام هي غيبة لشــخصيته، بحيثُ لم يعد أحد يســتطيع التعرف عليه باستثناء الأشخاص الذيــن يختارهم هو. فهو يعيش مع الناس ويراهم ويحضر المواســم كما تُؤكد الروايات، ولكنهم لا يعرفونه بشخصه[٢].

وإذا أصرَّ المُســتشرق (إسرائيل فردلاندر) على تشابه مسألة غَيبة الإمام المهدي بما حدث للمسيح من «صَلْب ورفع» كما يعتقد، فعليه أن يوضّح لنا ســبب تلــك المصادفــة الغريبة بين عقيــدة صَلب المســيح ورفعه في المسيحية، وعقيدة الصلب في الديانات الوثنية السابقة، كما يؤكد المؤرخ المســيحي (ول ديورانت) حيث يذكــر أنَّ الأمميين في بلاد اليونان الذين آمنوا بالمسيح، ولم يروه، قد آمنوا به كما آمنوا بآلهتهم المنقذة، التي ماتت

---

1 - Israel Friedlaender, Heterodoxies of the Shiites، pp 32- 29.

٢ - في الخــبر «عن زرارة، قال: ســمعت أبا عبد الله عليه الســلام يقــول: إنّ للقائم غيبتين يرجع في إحداهما وفي الأخرى لا يُدرى أين هو، يشــهد المواسم، يرى الناس ولا يرونه»، النعماني: الغيبة، ج١، ص١٧٩.

لتفتدي بموتها بني الانسان، حيث كانت هذه العقيدة منتشرة منذ زمن بعيد في مصر وآسيا الصغرى وبلاد اليونان[١]. فالمصريون القُدامى كانوا يقولون إنَّ أوزوريس عانى من العذاب والاضطهاد ليكون مخلِّصًا للناس. وهذا الأمر يقوله البوذيون عن بوذا أيضا.

بل إنَّ المستشرق المسيحي مُطالب بتفسير هذا التطابق العجيب بين كريشنا المعبود البراهماني والمسيح، في اعتبار كل منهما صُلب وسينزل من السماء في آخر الزمان ليكون مخلِّصًا للناس، وأنه الأقنوم الثاني في ثالوث اللاهوت المُقدس وابن الإله من امرأةٍ عذراء!

تم التمهيد لغيبةِ الإمام المهدي عليه السلام، ولم تكن مُفاجِئةً للشيعة، فقد تحدث عنها النبي والأئمة بكثرة. كما تحدثوا عن غيبتيه الصغرى والكبرى، وتحدّثوا عن ظهوره وانتصاراته. وقد تمّ إعداد الشيعة معرفيًّا ونفسيًّا لتقبل غيبة الإمام المهدي وتفهمها. وعندما غاب عليه السلام، جعل نُوابًا له حتى لا تكون هناك شكوكًا حول وجوده، ولا يكون غيابه التام مفاجِئًا.

وقد نفى (الشيخ المفيد) وُجود أي انقسام داخل الإمامية بشأنه في ذلك الزمان، كما نفى رواية الأربعة فرق التي لا تُوجد لها أسماء[٢]. ونقل

---

١ - ول ديورانت: قصة الحضارة، الجزء الثالث، رقم ١١، ص٢٦٤ .

٢ - المرتضى: الفصول المختارة، ص٣٢١.

(ابـن حزم الظاهري) أنَّ الإمامية كلهم مُتّفقون على أنَّ محمدَ بن الحسـن المهـدي حـيٌّ لم يمُت، ولا يمـوت حتّى يظهر ويمـلأ الأرض عدلاً كما مُلئت ظلماً وجَوْراً، وهو عندهم المهدي المنتظر[١].

ومن الجانب السُّـني روى البرزنجي عن أبي عبد الله الحسين بن علي أنه قـال: «لصاحب هذا الأمر – يعني المهـدي – غيبتان، إحداهما تطول حتى يقـول بعضهم مات وبعضهم ذهب. ولا يطّلع على موضعه أحد من ولي ولا غـيره إلا المولى الذي يلي أمره»[٢]. غير أنَّ البرزنجي فسرَّ الرواية عـلى أنَّ الغيبةَ الصغرى تقـع في جبال مكة. وأهمـل الحديث عن الغيبة الثانية.

وروى (الشـافعي السـلمي) في كتابه «عَقْد الدرر» عن الإمام الحسين عليه السـلام قال: «لصاحب هذا الأمر - يعني المهدي- غيبتان، إحداهما تطول حتّى يقول بعضهم 'مات!'، وبعضهم 'قُتِل!'، وبعضهم 'ذَهَب!'، ولا يطَّلع على موضعه أحدٌ من وليٍّ ولا غيره، إلاّ المولى الذي يلي أمرَه»[٣].

أمَّا سـبب الاختفاء والغَيبة فيرى المسـتشرق (كونسلمان) أنه الخوف، فقد خافت العائلة على الإمام وقامت بإخفائه خشية مؤامرات عمِّه جعفر. وبعد مـا حدث أمام تُجّار قُـم، حيث أخبر الإمام بمبلـغ المال ومصادره

١ - ابن حزم الاندلسي: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج٥، ص٣٧.
٢ - البرزنجي: الإشاعة لأشراط علم الساعة، ص١٨٧.
٣ - السلمي الشافعي: عقد الدرر في اخبار المهدي المنتظر، ص١٣٤.

والحـلال منه والحرام، كان يُمكن لجعفر أن يخطط للقضاء عليه بالسُّـم. وفي الواقع كان بيت الإمام العسكري في سامراء مبنيًّا فوق سراديب وأقبية متشـعبة مَنَحَتْ الابن فرصةَ الاختفاء أثناء ملاحقـةِ جنود بني العباس له. لكن من غير المعلوم ماذا حدث بعد ذلك[١].

ويبدو أنَّ (كونسـلمان) كان محقًّا في تحميل جعفر بن علي مسـؤولية غيبـة الإمام، لكن ذلك لا يجـب أن يُبرئ الحاكم العباسي من جرائمه في ملاحقـة الأئمة وآخرهم المهـدي. وقد أُثِر عن الإمام زيـن العابدين عليه السلام إخباره بحقيقة الأمر قبل وقوعه، حيث قال: «كأنيّ بجعفر الكذاب وقـد حمل طاغية زمانه على تفتيش أمر ولي الله، والمُغيَّب في حفظ الله، والتوكيل بحـرم أبيه جهلاً منه بولادته، وحرصًا على قتله إنْ ظفر به، طمعًا في ميراث أبيه حتى يأخذه بغير حقّه»[٢].

لا تعكـس كتابـات المسـتشرقين مواقـف علمية من الإسـلام عمومًا والشيعة بشكل خاص. وهم يصدرون عن خلفيات اعتقادية وفكرية ومهنية متنوعة. فهناك العسكري والمُخابراتي والأكاديمي والباحث ورجل الدين، وكانت نظرتهم للشرق تنقسـم إلى موقفين، الأول: أَقلِّي يُبدي احترامًا له. والثاني: أكثري يعكس حالةً من الاسـتعلاء. والموقف الاسـتعلائي يُحيل

١ - كونسلمان: سطوع نجم الشيعة، ص١١٦.
٢ - الطبرسي: الاحتجاج، ج٢، ص٤٩.

إلى شعور بالقوة والتفوق مُقابل الضّعف والتخلف الذي تردّى فيه العالم الشرقي. وغالبًا ما يستخدم الاستشراق أداة لتكريس ذلك التفوق من خلال دارسة نقاط القوة والضعف في الثقافة الشرقية من أجل تأبيد الهيمنة والاستتباع.

لاشك أنَّ الاستشراق يعكس تَوقًا غربيًّا لمعرفة الآخر من أجل الإحاطة بسلبياته وإيجابياته ودراستها واستخدامها في التعامل معه. وكانت نتيجة ذلك التّوق، جمع الكثير من المخطوطات العربية وتنظيمها وترتيبها وحفظها في المكتبات الغربية، لكنَّ هذا الجانب الإيجابي لا علاقة له بالموضوعية العِلمية، بقدر ما له علاقة بالبحث الغربي عن اكتساب أسباب القوة.

ردَّ العرب على مقولات الاستشراق بطريقتين تختلفان باختلاف خلفياتهم الفكرية والأيديولوجية والمذهبية. الأولى كانت مرحّبة، وقادها «الحداثيون» الوضعيون الذين يتبنّون الأنساق الفكرية الغربية، ولا توجد لديهم سوى مناقشات جزئية من أجل تغليب رأي هذا المستشرق على ذاك. والثانية رافضة، تبناها «الإسلاميون» وجاءت ردودهم من زوايا مختلفة علمية ومذهبية وأيديولوجية.

وقد تحدَّث بعض «الحداثيين» عن ضرورة إنشاء علم للاستغراب في مُقابل الاستشراق، من أجل دراسة الثقافة الغربية بطريقة نقدية، كما فعل حسن حنفي في كتابه «مقدمة في علم الاستغراب». لكنَّ نقد الاستشراق

يصعب أن يُنجزه باحث يتبنّى مقولات الفكر الغربي الذي يحكم توجهات المستشرقين، ويصف نفسه بالوضعي ويتبنّى الأفكار المادية الغربية، ويُحاول إحلالها داخل المنظومة الإسلامية من خلال الادعاء بأنَّ مفاهيم القرآن ومقولاته كما هو الله والوحي والنبوة والمهدوية والجنة والنار وغيرها، مُجرد رموز وإشارات ومجازات وليست حقائق[1].

ومن المفُارقات أن يُبدي المستشرقون احترامًا كبيراً لفكرة المهدي أو المخلص في عقيدتهم سواء كانت يهودية أو مسيحية، بينما ينكرون ذلك بخصوص عقيدة المهدوية في الإسلام. فهم ينفون عن غيرهم ما يعتقدون هُمْ به. وهذا يعني أنَّ مواقفَهم كانت محكومة بمعتقداتهم الدينية الخاصة. كما يعني أيضًا أنَّهم أنكروا المهدي تمسكًا بمعتقداتهم حول الخلاص، وأنَّ المَشيح عند اليهود أو المسيح عند المسيحيين هو المُخلص.

المَبحَثُ الثَّالثُ:
المَهدَوِيَّةُ فِي القُرآنِ

تجد الأُطروحة المهدويَّة أساسها النظري في القرآن الكريم، فهي لا

١ - حسن حنفي: التراث والتجديد، ص٤٠ - ٦١.

تستمد أصالتها من الروايات والأحاديث النبوية فحسب. والاختلاف بين القرآن والحديث هو فرق بين المفهوم ومصاديقه الواقعية. فقد جاءت الروايات لشرح الآيات ذات الصلة وتشخيص ما جاء فيها على نحو المفهوم. أكَّد القرآن في كثير من الآيات على انتصار الدين الإلهي في النهاية وظهور الإمام الذي يُحرك تلك الأطروحة في الواقع، ويُطبق أنظمتها للانتقال بالناس من واقع بائس ومرير إلى واقع مختلف تمامًا. ولا تختص المُدونة الشيعية بإيراد النصوص التي تفسر الآيات التي تُبشر بالإمام المهدي، بل يشمل ذلك المدونة السُّنية، وبشكل خاص موسوعات التفسير. ويمكن التوقف عند عدة آيات فُسّرت بالإمام المهدي.

أَوَّلًا: المَهدَوِيَّةُ في التَّفَاسِيرِ السُّنِيَّة

١- قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**﴾. [التوبة:٣٣]، [الفتح:٢٨]، [الصف:٩].

وقد تكرَّرت هذه الآية في ثلاث سور، ربما من أجل التأكيد على حتمية ظهور الإسلام على غيره من الأديان، وقد فسَّرها علماء أهل السّنة بأنها تُشير إلى الإمام المهدي عليه السلام.

قال الأندلسي في «البحر المحيط» والرازي في «مفاتيح الغيب» والخطيب الشربيني في «السراج المنير» وابن عادل في تفسيره «اللباب في علوم الكتاب»: «قال السدي: ذلك عند خروج المهدي، لا يبقى أحد إلا

دخل في الإسلام، وأدّى الخراج»[١]. وقال النيسابوري في تفسيره «غرائب القرآن»: «وتمام هذا، إنّما يظهر عند خروج المهدي ونزول عيسى»[٢].

أما القرطبي فقال في تفسيره قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ..**﴾ «يريد محمدًا، صلى الله عليه وسلم، بالهدى أي بالفرقان ودين الحق ليظهره على الدين كلّه أي بالحُجة والبراهين.. ليظهر الدين، دين الإسلام على كُل دين، قال أبو هريرة والضحاك: هذا عند نزول عيسى عليه السلام، وقال السّدي: ذاك عند خروج المهدي، لا يبقى أحد إلا دخل في الإسلام، أو أدى الجزية، وقيل: المهدي هو عيسى فقط، وهو غير صحيح، لأنَّ الأخبار الصّحاح قد تواترت على أنَّ المهدي من عترة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلا يجوز حمله على عيسى»[٣].

ونقل الطبرى روايةً عن أبي هريرة في تفسير هذه الآية ﴿**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**﴾، قال: »حين خروج عيسى بن مريم»[٤]. وقد اتّفق السُّنة والشيعة على أنَّ عودة المسيح لا تكون إلا عند ظهور الإمام المهدي، فالبخاري

---

١ - انظر: ابن الأثير: البحر المحيط في التفسير، ج٥، ص٤٠٦، الرازي: مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، ج١٦، ص٣٣، الخطيب الشربيني: السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، ج١، ص٦٠٦، ابن عادل: اللباب في علوم الكتاب، ج١٠، ص٧٧.

٢ - النيسابوري: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج٣، ص٤٥٨.

٣ - القرطبي: تفسير الجامع لأحكام القرآن، ج٨، ص١٢١.

٤ - الطبري: تفسير الطبري، ج١٠، ص١٥٠.

يـروي «عن نافع مـولى أبي قتادة الأنصـاري أنَّ أبا هريرة قال: قال رسـول اللـه صلى الله عليه وسـلم: كيف أنتـم إذا نزل ابن مريم فيكـم، وإمامكم منكـم؟»[١]. وابن حجر يقـول في «فتح الباري»: «وكلّهم -أي المسـلمين- ببيـت المقدس، وإمامهم رجلٌ صالحٌ قد تقـدَّم ليصلّيَ بهم، إذ نزل عيسى، فرجع الإمام ينكص ليتقدَّم عيسى، فيقف عيسى بين كتفيه، ثمَّ يقول: تقدّم، فإنَّها لك أُقيمت. وقال أبو الحسـن الخسـعي الأبدي في مناقب الشافعي: «تواترت الأخبار بأنَّ المهدي من هذه الأمة، وأنَّ عيسى يصلّي خلفه»[٢].

وإذا كان القـرآن والعـترة متلازمين لا يفترقان كـما في حديث الثقلين وغـيره، فإنَّ ذلك يعني أنَّ لـكل زمان إمامُه الذي ينطق عـن القرآن ويُبين أحكامـه. وهذا يثبت أنَّ الإمام بعد العسـكري، هو المهـدي، فهو الإمام الثاني عشر، كما تؤكد رواية البخاري ومسلم بخصوص عدد خلفاء النبي، صلى الله عليه وآله، وأنَّهم اثنا عشر.

ففي الحديث قال رسول الله صلى عليه وآله: «إني تارك فيكم خليفتين: كتاب الله، حبل ممدود ما بين الأرض والسماء، وعترتي أهل بيتي، وإنّهما لن يتفرّقا حتّى يَردا عليَّ الحوض»[٣].

---

١ - صحيح البخاري، ح: ٣٤٤٩، وصحيح مسلم، ح: ١٥٥.

٢ - ابن حجر: فتح الباري، ج٦، ص٣٥٨.

٣ - الألباني: صحيح الجامع الصغير، ج١، ص٤٨٢، ح ٣٧٨٨، ومسـند أحمد بن حنبل، ح٢١٦٥٤.

وهو حديثٌ مشهورٌ ومُتواترٌ يكشف ضرورة وُجود إمام مِن عِترة النبي لا يفارق القرآن، كما أكد علماء من أهل السنّة مثل المناوي الشافعي في «فيض القدير» عند شرح حديث الثقلين، قال: «قال الحافظ السمهودي: هذا الخبر يُفهِم وجود من يكون أهلاً للتمسك به من أهل البيت والعترة الطاهرة في كلّ زمن إلى قيام الساعة، حتّى يتوجه الحثّ المذكور إلى التمسك به، كما أنَّ الكتاب كذلك، فلذلك كانوا أمانًا لأهل الأرض، فإذا ذهبوا ذهب أهل الأرض»[1].

وهذا كلُّه يُؤكد ما رُوي عن النبي والأئمة من آل بيته صلوات الله عليهم حول غيبة الإمام المهدي. وهو ما ينسجم مع قوله -تعالى-: ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾[الرعد: ٧]. وقد أشار إلى ذلك صراحة الحافظ القندوزي الحنفي في كتابه «ينابيع المودّة» في رواية عن ابن عباس أنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ عليًّا وصيّي، ومن ولده القائم المنتظر المهديّ الذي يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما مُلئت جَوْرًا وظلمًا، والذي بعثني بالحقّ بشيراً ونذيرًا، إنَّ الثابتين على القول بإمامته في زمان غيبته لأعزُّ من الكبريت الأحمر، فقام إليه جابر بن عبد الله، فقال: يا رسول الله، وللقائم من ولدك غَيبة؟ قال: إيْ وربيّ، ليمحّص الله الذين آمنوا، ويمحق الكافرين»[2].

١- المناوي: فيض القدير، ج٣، ص١٥.
٢ - القندوزي: ينابيع المودّة، ج٣، ص٢٩٧.

٢- قوله تعالى: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾[التوبة:٣٢].

قال الثعلبي في تفسيره: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾، «أي يُعلي دينه، ويُظهر كلمته، ويتمّ الحق الذي بعث به رسوله ولو كره الكافرون ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ ليعليه، وينصره، ويظفره ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ على سائر المِلل كلّها ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾. قال السدّي: وذلك عند خروج المهدي، لا يبقى أحد إلا دخل في الإسلام، أو أدّى الخراج»[١].

٣- قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[البقرة:١١٤].

قال الطبري في تفسيره: «حدثنا موسى، قال: حدثنا عمرو، قال: حدثنا أسباط، عن السدّي قوله: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾، أما خزيهم في الدنيا، فإنهم إذا قام المهدي، وفُتحت القسطنطينية قتلهم. فذلك الخِزي»[٢].

وقال ابن أبي حاتم في تفسيره: «حدثنا أبو زرعة، ثنا عمرو بن حماد بن طلحة، ثنا أسباط، عن السدي: أما خزيهم في الدنيا فإنَّه إذا قام المهدي فتح القسطنطينية، وقتلهم، فذلك الخِزي، وروي عن عكرمة، ووائل بن داود نحو ذلك»[٣].

وقال ابن كثير في تفسيره: «وفُسّر الخِزي من الدنيا بخروج المهدي

---

١ - الثعلبي: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج٥، ص٣٦.
٢ - الطبري: تفسير الطبري، ج ١ ص ٥٤٥.
٣ - ابن أبي حاتم: تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٢١١.

عند السدّي، وعكرمة، ووائل بن داود»[١]. وقال القرطبي في تفسيره: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾، عن قتادة السدي: الخزي لهم في الدنيا قيام المهدي وفتح عمورية ورمية وقسطنطينية، وغير ذلك من مدنهم على ما ذكرناه في كتاب التذكرة»[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[السجدة:٢١].

قال ابن عبد السلام في تفسيره ﴿الْعَذَابِ الأَدْنى﴾: «مصائب الدنيا في النفس والمال، أو القتل بالسيف، أو الحدود، أو القحط والجدب، أو عذاب القبر، قاله البراء بن عازب ومجاهد، أو عذاب الدنيا، أو غلاء السعر. ﴿الْعَذَابِ الأَكْبَرِ﴾ جهنم، أو خُروج المهدي بالسيف»[٣].

وفي تفسير «البحر المحيط»: «عن جعفر بن محمد: أنه خروج المهدي بالسّيف»[٤].

٥- قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الأنفال:٣٩].

قال الآلوسي في تفسيره ﴿وَيَكُونَ الدّينُ كُلُّهُ لِلهِ﴾: «وتضمحل

---

١ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٢٧١.
٢ - القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٢، ص٧٩.
٣ - العز بن عبد السلام: تفسير القرآن الكريم، ج٢، ص٥٥٣.
٤ - أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، ج٨، ص٤٣٩.

الأديان الباطلة كلها إما بهلاك أهلها جميعاً أو برجوعهم عنها خشية القتل، قيل: لم يجئ تأويل هذه الآية بعد، وسيتحقق مضمونها إذا ظهر المهدي، فإنه لا يبقى على ظهر الأرض مُشرك أصلاً»[1].

ثَانِيًا: المَهدَوِيَّةُ فِي التَّفَاسِيرِ الشّيعِيَّة

نجد في التفاسير الشيعية تركيزاً أكبر بكثير من التفاسير السُّنية على شخصية الإمام المهدي عليه السلام، وهناك كمٌّ كبير من الآيات المفسَّرة في الإمام. فقد اهتمَّ النبي وأئمة أهل البيت بالأُطروحة المهدوية، وتحدَّثوا في كل التفاصيل المتعلقة بها، كما فسَّروا الآيات المُؤولة فيها بسبب أهميتها الفائقة. وهذا لا يعني أنَّ المهدوية فكرة شيعية نبتت بسبب أوضاع سياسية واجتماعية معينة عانى منها الشيعة كما يدَّعي بعض المستشرقين، بل يعني أنَّ الشيعة هم من اهتم بحفظ هذا التراث النبوي أكثر من غيرهم، فقد كانوا مرتبطين بأئمة أهل البيت الذين يمُثلون الثقل الثاني، الذي أوصى النبي بالتَّمسك به، بينما تمسَّك غيرهم بأشخاص لم يُوصِ النبي بالتمسك بهم ولا بأقوالهم، وربما أوصى بعكس ذلك.

ليست المهدوية مجرد مسألة فرعية تخصّ الجوانب العملية، كما هي فروض الصلاة والصيام، بل هي عقيدة متفرعة عن أصل الإمامة. فكما

---

١ - الآلوسي: روح المعاني، ج٥، ص١٩٤.

يؤمن الشيعة بالنبي في نبوته، وبأحد عشر إمامًا في إمامتهم، يؤمنون أيضا بالمهدي في ولادته وغيبته، وظهوره في آخر الزمان، وإمامته لكل المسلمين. أمَّا الولاء له فهو الجانب العملي من هذه العقيدة. أي إنَّ الولاية هي التعبير العملي عن الاعتقاد بالإمامة والمهدوية. ولذلك جعلت الولاية ركنًا من أركان الدين إلى جانب الصلاة والصيام والزكاة والحج، بل إنها أهمها لأنَّ صحة تأدية بقية الأركان متوقفٌ عليها. ومن تلك الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾[الأنبياء:٥].

قال الطبرسي في تفسير الآية: ﴿**أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾ قال أبو جعفر عليه السلام: هُم أصحاب المهدي عليه السلام في آخر الزمان. ويدل على ذلك ما رواه الخاص والعام عن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد، لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً صالحًا من أهل بيتي، يملأ الأرض عدلاً وقسطًا، كما قد ملئت ظلمًا وجَوْرًا[١].

٢- قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾[التوبة:٣٣].

روى الصدوق: «عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في

---

١ - الطبرسي: تفسير مجمع البيان، ج٧، ص١٢٠.

قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾، فقال: والله ما نزل تأويلها بعد، ولا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم عليه السلام، فإذا خرج القائم عليه السلام، لم يبْق كافر بالله العظيم، ولا مشرك بالإمام إلا كره خروجه، حتى لو كان هناك كافرٌ أو مشركٌ في بطن صخرة لقالت: يا مُؤمن في بطني كافر فاكْسرني واقْتله»[1].

٣- قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا**﴾[النور: ٥٥].

روى فرات الكوفي: عن السدّي، عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ**﴾[النور:٥٥] إلى آخر الآية، قال: «نزلت في آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم»[2].

٤- قوله تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾[النساء: ٥٩].

---

١ - الصدوق: كمال الدين وتمام النعمة، ح١٦، ص٦٧٠، وتفسير فرات الكوفي، ح٣، ص٤٨١-٤٨٢.

٢ - تفسير فرات الكوفي، ص٢٨٨- ٢٨٩، الحديثان: ٣ و٦.

روى ابن بابويه عن جابر بن يزيد الجعفي، قال: «سمعت جابر بن عبد الله الأنصاري يقول: لما أنزل الله عزّ وجل على نبيّه محمد صلى الله عليه وآله ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، قلت: يا رسول الله عرفنا الله ورسوله، فمن أُولوا الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: هُم خلفائي يا جابر وأئمة المسلمين من بعدي، أوّلهم علي بن أبي طالب ثم الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين ثم محمد بن علي المعروف في التوراة بالباقر، ستدركه يا جابر فاذا لقيته فاقْرِئْه منِّي السلام، ثم الصادق جعفر بن محمد، ثم موسى بن جعفر، ثم علي بن موسى، ثم محمد بن علي، ثم علي بن محمد، ثم الحسن بن عليّ، ثم سَميّي وكُنيّي حجة الله في أرضه وبقيته في عباده ابن الحسن بن علي. ذاك الذي يفتح الله - تعالى ذكره- مشارق الأرض ومغاربها على يديه، ذاك الذي يغيب عن شيعته وأوليائه غَيبة لا يثبت فيها على القول بإمامته إلاّ من امْتحن الله قلبه للإيمان.

قال جابر: فقلت يا رسول الله، فهل يقع لشيعته الانتفاع به في غيبته؟ فقال، عليه الصلاة والسلام: أي والذي بعثني بالنبوة، إنّهم يستضيئون بنوره، وينتفعون بولايته في غيبته كانتفاع الناس بالشمس وإنْ تجلّلها سحاب، يا جابر، هذا من مكنون سرّ الله ومخزون علمه فاكتمه إلا من أهله»[1].

---

١ - الصدوق: كمال الدين وتمام النعمة، باب نص الله تبارك وتعالى على القائم عليه السلام، ج١، ح٣ ص٢٨١.

٥- قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً**﴾[النساء: ١٥٩].

روى علي بن إبراهيم بسنده عن شهر بن حوشب قال لي الحجاج: «يا شهر، آية في كتاب الله قد أعيتني، فقلت: أيها الأمير أيّة آيةٍ هي؟ فقال: قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾[النساء:١٥٢]، والله إنيّ لآمر باليهودي والنصراني فيُضرب عنقه، ثُم أرمقه بعيني فما أراه يُحرك شفتيه حتى يخمد فقلت: أصلح الله الأمير ليس على ما أوّلت، قال: كيف هو؟ قلت: إنَّ عيسى ينزل قبل يوم القيامة إلى الدنيا، فلا يبقى أهل ملّة يهودي ولا غيره إلاَّ آمن به قبل موته، ويصلِّي خَلْف المهدي. قال: ويحك.. أنى لك هذا ومن أين جئت به؟ فقلت: حدثني به محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام. فقال: جِئْتَ بها والله من عين صافية»[1].

وبعد، ليست الأطروحة المهدوية أسطورة شيعية، كما ادّعى المستشرقون، بعدما تبين أنَّهم لا يختصُّون بها، بل يُشاركهم فيها أهل السُّنة الذين تعجُّ مُدوّناتهم في الحديث والتفسير بها. صحيح أنَّ الشيعة يُؤكّدون عليها أكثر من غيرهم، ويعتبرونها امتدادًا لمفهوم الإمامة، كما يُبدون وضوحًا بخصوص هويَّة صاحبها وحيثيات ولادته وغَيبته. لكن

١ - القمي: تفسير القمي، ج١، ص١٥٨.

هذا شيء يُحسب لهم، فالمهدي يجب أن يكون شخصًا مُحدّدًا في نسبه وصفاته وخصائصه، حتى يعرف الناس حقيقته، ولا ينجرُّون وراء المُدعين للمهدوية الذين ظهروا عبر التاريخ. ولم تكُن المهدوية مجرد تنظير، بل كانت حقيقة مُشخصة في رجلٍ رآه كثيرون ونقلوا أحاديثه ومواقفه. وهو يختلف عن مُخَلِّصي الديانات الأخرى المزعومين، سواء في ذاته أو صفاته.

لا تخلو رسالة نبوية من فكرة المهدوية، كما تؤكد الروايات الإسلامية. فهي أصل مشترك بين جميع الرسالات التوحيدية. وبحسب تلك النصوص، فإنَّ أوَّلَ من بشَّر بالقائم المهدي في آخر الزمان هو آدم بعد أن تلقى من ربِّه كلمات، فدعا بها وقُبلت توبته.

وباختصار: تمُثل المهدوية عقيدة قرآنية وإسلامية خالصة، وقد تجسّدت في شخص الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت عليهم السلام. وهي عقيدة قائمة على أسس دينية وعلمية لاشكّ فيها. ومن خلالها وعد الله المؤمنين بالنصر والغلبة وظهور الإسلام في آخر الزمان، أما ما ادّعاه المُستشرقون بكلِّ اتجاهاتهم، من تشكيكات ومواقف، فهو بعيد عن الحقائق الدينية والتاريخية والعلمية، وقد تبيّن تهافت الأطروحات الاستشراقية في موقفهم من العقيدة المهدوية وأصالتها الإسلامية.

الفَصْلُ الثَّالِثُ:
مَعَارِكُ النّهَايَةِ وَالاِستِئنَافُ المَهدَوِيُّ

لم ينقطع الاستشراق الجديد عن الاستشراق التقليدي في رؤيته للإسلام والتشيُّع، بل إنَّه يمثل امتدادًا له. وما يتميز به استخدامه لأدوات وأجندات جديدة تتناسب مع التغيرات السياسية والاجتماعية خلال العقود الأخيرة. فهو يركز على قضايا معاصرة مثل الإسلام السياسي والإرهاب والهجرة، ويقدِّم الشرقَ الإسلامي باعتباره «الآخر» المختلف الذي يمثل تهديدًا حضاريًّا للغرب ويجب توجيهه والسيطرة عليه.

ولَعلَّ أبرزَ خصائص الاستشراق الجديد توجهاته الأيديولوجية والسياسية، حيثُ إنه يربط الإسلام بقضايا مثل: التطرف والعنف والاستبداد. وهو يُنتِج خطابًا تستخدمه السياسات الغربية لتبرير مواقفها في الشرق الأوسط، كما هو التدخل العسكري ضد الذين يقاومون هيمنته أو دعم الأنظمة الاستبدادية الموالية له.

يجد الاستشراق الجديد في الإعلام داعمًا مهما له، مما يعني أنهما يشتغلان معا ضمن إستراتيجية واحدة. وهو يعمل من خلاله على تشكيل صور نمطية عبر شبكات التلفزيون والمواقع الإلكترونية ومنصات التواصل الاجتماعي والكتب الفكرية والتقارير السياسية، مما يعزز رُهاب الإسلام لدى الجمهور الغربي.

لكنَّ الاستشراق الجديد لا يستطيع إخفاء سطحية معارف المشتغلين به وغياب العمق الأكاديمي لديهم، على عكس الاستشراق التقليدي الذي انشغل بدراسة النصوص التراثية. فهو يعتمد غالبًا على تحليل سياسي متحيز دون إحاطة معرفية ضرورية في مجال عمله.

بل إنَّ الاستشراق الجديد يستخدم الدراسات الأكاديمية المزيفة والموجهة، حيث لم تعد الجامعات الغربية تبحث عن الحقيقة بقدر ما باتت تلتقط ما يخدم مسبقاتها، رغم أنَّ هذا الأمر متجذر في الدراسات الاستشراقية التقليدية. والاستشراق الجديد يستخدم أيضًا الأحداث الإرهابية التي كثيراً ما تكون صناعة مخابراتية غربية لتعزيز أجنداتهم.

يتجاهل الاستشراق الجديد -بشكل مطّرد- السياقات التاريخية والثقافية للإسلام ويحاول خلطه بالمذاهب المتطرفة والبعيدة عن جوهره القيمي، ومزجه بسلوك بعض المسلمين الذين لا يعرفون أحكامه، من أجل تقديمه للناس بشكل مُشَّوه وغير حقيقي. وهذا يعكس تحيزاً أيديولوجيا يخدم أجندات سياسية ويبرر شن الحروب ولا يسعى إلى فهم علمي للعالم الشرقي وثقافته. من الطبيعي على هذا النحو أن يعيد الاستشراق الجديد إنتاج الصور النمطية المختزلة وغير الدقيقة عن الإسلام.

لا يقطع الاستشراق الجديد مع الاستشراق التقليدي بل يتمثله. وهو في جوهره تحوّل من نقد القرآن والسيرة النبوية إلى دراسة الحركات الدينية المتطرفة، التي صنعها الغرب والتي يتم تقديمها على أنها تمثل الإسلام

مـن خلال دفعها إلى ممارسـة العنـف المنفلت وصـولاً إلى الإيغال في حجب صورة الإسـلام الحقيقية أمام الـرأي العام العالمي وتقديم صورها مناقضة له. بَنى الغرب والصهيونية مشروعهم الإستراتيجي على خلق عدو وهمـي جديد، مختلف عن حركات المقاومـة التي تعمل ضمن حدودها وتقاوم الاحتلال. والحركات التكفيرية التي صنعتها المخابرات الأمريكية وتمارس الإرهاب ضد المسـلمين بشكل خاص هي ذلك العدو الوهمي الذي تتم من خلاله محاربة الإسلام.

المَبحَثُ الأَوَّلُ:
(ريتشاردسون) وَتَزِييف الحَقِيقَةِ المَهدَوِيَّةِ

لم يتوقف الغرب عن الاهتمام بالإسلام منذ أن بدأ رحلاته الاستكشافية في العالم الإسـلامي في القرون الوسطى. واستمر هذا الاهتمام مع الغزو العسـكري الواسـع الذي تعرض له العرب والمسـلمون مـع بداية القرن التاسع عشر. لكنَّ الغربَ أبدى تركيزاً أكبر على المنطقة العربية خاصةً منذ بداية سـبعينيات القرن العشرين، وبـدأ كثير من الباحثين والأكاديميين في الغرب يهتمون بالإسلام رغم أنَّه بعيد عن مجال اختصاصاتهم الأصلية.

وقد برهنـت الأحداث المتلاحقـة منذ الحرب الأفغانيـة ضد الوجود السـوفياتي على وجود مشروع توسـعي لإعادة احتلال أجزاء من المنطقة

عسكريًّا ليس لصالح الوجود الأمريكي ولكن لصالح الكيان «الإسرائيلي» المحتل هذه المرة. فالحركة الصهيونية التي تُحكم قبضتها على السياسات الغربيــة بعد أن نجحت في الســيطرة عليه اقتصاديًّــا وثقافيًّا، بدأت تتحرك نحو تنفيذ مخططها القديم في التوســع وصــولاً إلى تحقيق ما بات يعرف بـ «إسرائيل الكبرى» وهو يشــمل دول الشــام وأجزاء من العراق والحجاز ومصر.

ورغــم أنَّ الصهيونية المســيحية تــرى أنَّها تخــدم معتقداتها في عودة المســيح عــبر نشر إشــعال الحروب ونشر الفــوضى تمهيدًا لما يســمونه «حرب هرمجدون» التي كان يتحدث عنها بهوس شديد الرئيس الأمريكي الســابق (رونالــد ريغــن) (١٩١١-٢٠٠٤) وكــرر الحديث عنهــا الرئيس الأمريكي المنصرف (جوزيف بايدن)، إلاَّ أنَّ الصهيونية اليهودية باتت هي التي تتصدر المشــهد وتعلن أنها تمهد لخروج المشيح اليهودي كما تتبنى ذلك حركة «حاباد»، وأنَّ الحرب «الإسرائيلية» الجارية في الشرق الأوسط هــي «حرب القيامــة» من أجل تغيير وجه المنطقة، كــما أعلن ذلك رئيس الوزراء «الإسرائيلي» (بنيامين نتنياهو).

عمِل الاســتشراق الجديد عــلى تزييف الحقيقة المهدويــة، تمامًا كما فعــل الاســتشراق التقليدي، وادّعــى أنَّ الإمام هو «الدجــال المنبوذ» في كل الأديــان، كــما فعل ذلك المســتشرق الأمريكي المعــاصر الذي يتبنى الصهيونية المســيحية، (جويل ريتشاردســون)، في كتابه «المسيح الدجّال

الإسلامي؛ حقائق صادمة»: «أنَّ المسلمين ينتظرون المسيح الدجَّال لا ليرفضوه بل ليقبلوه»، وزعم أيضًا «أنّ المهدي يتشابه تمامًا مع المسيح الدجّال»[١].

ولأجل ذلك، يدَّعي هذا المستشرق أنَّ الدجال هو من ذرية النبي الخاتم صلى الله عليه وآله. وهذه مُفارقة. فقد كان النبي يحذِّر من الدجال وفتنته، ويُبشر بالمهدي ويدعو إلى موالاته محدِّدًا نسبه وصفاته وأخلاقه وعلمه والتزامه. وحدَّد في المُقابل صفات الدجال الجسدية فقال إنَّه أعور وقصير ويستخدم السحر[٢]، كما حدّد صفات الإمام المهدي فقال إنه في غاية الحُسن، ويجيب على الأسئلة التي لا يمكن لغيره أن يجيب عليها[٣]. وهذا مقياس محسوس يمكن التأكد من خلاله مِنْ هوية الدجال.

لم يعد خافيًا أنَّ الغربيين والصهاينة يعلمون أنَّ جزءًا من المسلمين -والشيعة على نحو خاص- يتوقعون بدورهم الظهور المهدوي، حتى أنَّ الرئيس الأمريكي (جو بايدن) قال في شهر مايو/آيار ٢٠٢٢ إنَّه عين أستاذًا

1 - Joel Richardson: The Islamic Antichrist, Pages 80, 94 & 187.

٢ - في بعض النصوص عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ المسيح الدجال أعور العين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية». البخاري، ح٧٤٠٧. وعن عبادة بن الصامت أنه صلى الله عليه وآله قال: «إني حدثتكم عن الدجال حتى خشيت أن لا تعقلوا، ذلك أنَّ المسيح الدجال قصير أفحج جعد أعور مطموس العين ليست بناتية ولا جحراء، فإن أُلبس عليكم، فاعلموا أنَّ ربّكم ليس بأعور». المجلسي: بحار الأنوار، ج٨٨، ص٩٢.

٣ - أبو داود: السنن، ح٤٢٨٥؛ والحاكم: المستدرك، ح٨٦٧٠.

للدراسات الإسلامية ليعرف أكثر عن الإمام المخفي، أي الإمام المهدي عليه السلام. وهذا ما يفسر دخول كثير من خبراء السياسة المتخصصين في علم الاجتماع والتاريخ والأديان في مجال الاستشراق وانخراط الجميع في التنظير لمحاربة ما يسمونه «الإرهاب الإسلامي» باعتباره الذريعة الأهم لشن الحروب.

يعتمد الاستشراق الجديد على الصور النمطية التي رسخها الاستشراق التقليدي بخصوص الإسلام عامة والتشيع خاصة. ويمكن للباحث أن يلاحظ بسهولة الموقف الاستشراقي المعادي لهما بشكل يفوق التوقع. وإذا كان الاستشراق القديم يبني مواقفه المتحيزة غالبًا على قراءاته المباشرة للتراث الذي كتب حول الإسلام، فإن الاستشراق الجديد يبني على تلك النتائج ويروج لأفكار ضحلة ومعلومات سطحية.

كان الإسلام، ولا يزال، العدو الإستراتيجي الأول للغرب، وكان لابد له من صناعة حركات ترفع شعارات الدين وتمارس الإرهاب لتبرير سيطرته السياسية وتدخلاته العسكرية في المنطقة بعد أن كان يستند إلى العمل الثقافي لتشويه الدين وسلخ الناس من انتمائهم ونشر الفساد بينهم عبر فرض تشريعات وقوانين محددة، لتسهيل تمدده وتأبيد استغلاله لثرواتهم وجهودهم.

وهنا يمكن رصد اهتمام الاستشراق الجديد من خلال كتابات بعض المؤرخين والباحثين الأمريكيين الذين سنكتفي بمثالين منهم، وهما (برنار

لويس) و(صمويل هنتنغتون). كان دور (لويس) و(هنتنغتون) مركزيًّا في صناعة السياسات الأمريكية منذ أن كتب (لويس) مقالته عن "جذور السخط الإسلامي" عام ١٩٩٠ في مجلة أتلانتك مونثلي الأمريكية، وكتب (هنتنغتون) مقالته عن "صراع الحضارات" في مجلة "الفورين أفيرز" الأمريكية عام ١٩٩٣، والتي كانت بصدد تغيير بوصلة الغرب بعد خلق عدو إستراتيجي جديد هو العالم الإسلامي بدلاً عن الاتحاد السوفياتي المنهار. وكان لصعود المحافظين الجدد مع (جورج بوش) دور كبير في صعود ظاهر "الجهاديين" السلفيين الذين تم تحويل وجهتهم بعد الانتهاء من محاربة السوفييت إلى خوض حروب داخلية ومعارك إقليمية ترفع شعارات طائفية. وهو ما وفر لأمريكا ذريعة للتدخل بدعوى محاربة الإرهاب الذي لم يكن أكثر من صنيعة لها لشرعنة وجودها العسكري في المنطقة.

المَبحَثُ الثَّاني: تَنظِيراتُ (برنارد لويس)

اشتهر المستشرق اليهودي الأمريكي من أصل بريطاني (برنارد لويس Bernard Lewis) (١٩١٦-٢٠١٨م)، باعتباره أحد المستشرقين الصهاينة الكبار الذين درسوا الحركات الدينية وتأثير مفهوم المهدي على تلك الحركات التي وُصفت بالثورية والسياسية.

أثَّـر عمل (برنـارد لويس)، وهو مـؤرخ متخصص في تاريخ الإسـلام والشرق الأوسـط، بشـكل كبير على تصورات الغرب للعالم الإسـلامي، خلال القرنين العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين. كان مثيراً للجدل، وأعجب به البعض لسـعة اطلاعه ولكن آخرين انتقـدوه كما فعل «إدوارد سعيد» بسبب تكراره للصور النمطية الاستشراقية.

ركزت كتابـات (لويس) على موضوعـات مثل: انحدار العالم الإسـلامي وتحديـات الحداثة وسرديـة «صراع الحضارات». وكان يؤكـد على فكرة نهاية العالم. فكتب عنها، ولم يسـتثن موضوعات مثل المسـيحانية والمهدي. كان مهتمًّا بشكل خاص بكيفية تأثير المعتقدات المتعلقة بنهاية العالم على الحركات السياسـية والاجتماعية في العالم الإسـلامي. وفي مناقشاته، كان أحيانًا، يضع شـخصيات مثل الإمام لمهدي أو الحركات المسيحانية في إطار المساهمة في عدم الاستقرار أو اللاعقلانية، وهو ما يتماشى مع انتقادات الاستشراق.

أَوَّلًا: مِنهَجُ (بِرنَارْدْ لُوِيس)

اسـتخدم (برنـارد لويـس) المنهج السـياسي والاجتماعـي في قراءته للعقيـدة المهدويـة وتحليل الحـركات الدينية التي تسـتخدمها أو تتبناها ضمن سـياقها التاريخـي والاجتماعي. كان هذا المسـتشرق مهتمًا بفهم الحـركات الدينية، بما في ذلك الحركات المهدوية، من زاوية تأثيرها على الديناميكيات السياسية والاجتماعية في المجتمعات الإسلامية.

ركز (لويس) على كيفية استخدام العقيدة المهدوية لتحدي السلطات القائمة، أو لإعادة بناء النظام السياسي. ورأى أنَّ مفهوم المهدي كان أداةً لتوحيد الناس تحت راية دينية لمواجهة الظلم أو لفرض تغيير سياسي جذري.

وفي العلاقة بين الدين والسياسة، رأى (لويس) أنَّ «الحركات المهدوية»، أي تلك التي تنتحل اسم الإمام، ليست مجرد تعبير عن تدين أو روحانية، بل إنَّ لها أبعاد سياسية واضحة، حيث تُستخدم فكرة المهدي لشرعنة التحركات السياسية والثورات. وركز هذا المستشرق على كيفية ظهور الحركات المهدوية غالبًا في أوقات الأزمات، مثل الاحتلال الأجنبي، والانقسام الداخلي، وانهيار السلطة المركزية.

وفي البعد الاجتماعي، ذهب إلى أنَّ مشكلات الفقر والتهميش والأزمات الاقتصادية، كانت لها تأثيرها المفصلي على هذه الحركات. لقد رأى في الفكرة المهدوية وسيلة للتعبير عن تطلعات الطبقات المهمشة. وفي نظره، غالبًا ما تؤدي الحركات المهدوية إلى تغييرات عميقة في المجتمع، مثل: إعادة توزيع الموارد أو إعادة تشكيل البنى الاجتماعية. فهي تستغل صدى الفكرة المهدوية في الثقافة الشعبية كوسيلة للتعبير عن الأمل في الخلاص والعدالة.

واستخدم (لويس) أمثلةً تاريخيةً مثل: حركة المهدي في السودان بقيادة (محمد أحمد المهدي) في أواخر القرن التاسع عشر، لبيان كيف تفاعل

الفكر المهدوي مع الظروف السياسية والاجتماعية الخاصة بكل فترة.

وباختصار، قرأ برنارد (لويس) الأُطروحة المهدوية من منظور يجمع بين الديناميات السياسية والاجتماعية، مع التركيز على تأثير الحركات المهدوية على الهياكل السياسية والاجتماعية للمجتمعات الإسلامية.

ثَانِيًا: سِيَاقَاتُ العَقِيدَةِ المَهدَوِيَّة

ينكر (لويس) أصالة العقيدة المهدوية في الإسلام، ويبحث عن تبريرها من خلال السياقات التاريخية والسياسية. وقد رأى أنَّ هذه الفكرة كانت تُستخدم في كثير من الأحيان كوسيلة لتوحيد ودعم الحركات السياسية والاجتماعية، خاصةً خلال فترات الاضطراب والأزمات. وفي أحيان أخرى كانت تُستخدم لتحقيق أهداف خاصة بالزعماء الدينيين والسياسيين، أو لتبرير الثورات أو حركات التمرُّد. وقد كتب يقول: «اجتذبت أشكال التشيُّع المتطرفة التي لا تقبل التوفيق، المَوالي من الفُرس وغير الفُرس، فأدخل هؤلاء فيها الكثير من الأفكار الدينية الجديدة التي استَقُوهَا من معتقداتهم المسيحية واليهودية والفارسية الأولى.

وربمَّا كان تصوّر المهدي (أي المهدي إلى سواء السّبيل)، هو أهم هذه الأفكار الدينية الجديدة. وكان المهدي في أول الأمر زعيمًا سياسيًّا فحسب، ولكنه سرعان ما أصبح داعية دينيًّا مُنقذًا. ونرى أول مظهر مميز لهذا المذهب في ثورة المختار، الذي نظَّم في سنة ٦٨٥-٦٨٧ م ثورةً

في الكوفة باسم محمد بن الحنفية»[1]. وهذا التصور انسحب على رؤيته لحركات المقاومة للهيمنة الغربية والمشروع الصهيوني المعاصر.

يتجاوز تأثير (برنارد لويس) أوساط الباحثين والمؤرخين في الدراسات الإسلامية إلى صانعي السياسات الأمريكية وأصحاب القرار في الولايات المتحدة. وكان (جورج بوش الابن) يستشيره بخصوص سياساته في الشرق الأوسط، رغم أنَّ القرارات عادة ما تأتي من الدولة العميقة في شكل تقارير استخباراتية موجهة.

انتقل (لويس) في سبعينيات القرن العشرين من لندن، حيث كان يعمل في مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية إلى جامعة برنستون في الولايات المتحدة، ليصبح نجمًا في الأوساط الأكاديمية. كتب قرابة ثلاثين كتابًا في القضايا العربية والإسلامية وكان على علاقة قوية مع الساسة «الإسرائيليين» مثل (غولدا مائير) و(موشي ديان).

بدأت رؤيته الإستراتيجية للإسلام والمنطقة العربية تتشكل مبكرًا عندما كتب في خاتمة كتابه «العرب في التاريخ»: «يقف الإسلام اليوم في مواجهة حضارة غربية تشكل تحديًّا للعديد من قيمه الأساسية، كما أنَّها تمثل إغراءً للعديد من أتباعه. وقد أصبحت المقاومة الآن أكثرَ قوة. فلم يعد الإسلام عقيدة إيمانية جديدة متحمسة ومطواعة طالعة من قلب الجزيرة العربية

١ - لويس: برنارد العرب في التاريخ، ص١٠٠-١٠١.

بل ديانة قديمة، ذات طبيعة مؤسسية حولتها قرون من الاستخدام والتقليد إلى أنماط متصلبة من السلوك والعقيدة. لكن إذا كان المعدن صلبًا فإنَّ المطرقة صلبةٌ أيضًا. ومن هنا فإنّ التحدي هذه الأيام هو أكثر جذرية على نحو لا يضاهى وأكثر عنفا وانتشارا واتساعَ مدى. ولا يأتي هذا التحدي من المهزومين، بل من قبل العالم المنتصر. لقد أدى الأثر الذي أحدثه الغرب بسككه الحديدية ومطابعه وطائراته وأفلامه السينمائية ومصانعه وجامعاته والمنقِبين عن النفط فيه وعلماء آثاره وبنادقه الآلية وأفكاره إلى تحطيم البنية التحتية للحياة الاقتصادية إلى الأبد، بحيث طالت كل عربي في معاشه اليومي وأوقات راحته في حياته الخاصة والعامة كذلك، ما جعله في حاجة ماسة إلى إعادة صياغة أشكاله وقوالبه الاجتماعية والسياسية والثقافية الموروثة.

وسط هذه المشكلات التي تأتي بها عمليات إعادة الصياغة، يمكن للشعوب العربية أن تختار بين عدد من المسارات قد يخضعون لواحدة أو لأخرى من نسخ الحضارة الغربية المتنافسة المعروضة عليهم، جاعلين ثقافتهم وهويتهم جزءًا من حضارة أكثر هيمنة واتساعًا، أو أنهم قد يديرون ظهورهم للغرب وكل أعماله متعقبين سراب العودة إلى المثال الديني المفقود، ليصلوا، بدلاً من ذلك، إلى طبعةٍ جديدةٍ من الاستبداد تستعير من الغرب آليات الاستغلال والقمع، والعدة الكلامية الخاصة بالتعصب وعدم التسامح أو قبول الآخر، أو أنهم قد ينجحون في النهاية. وفي هذه الحالة

فإنَّ التخلص من وصاية الغرب هو شرط أساسي في تجديد مجتمعهم من الداخل والتعاون مع الغرب، مستفيدين من علمه وإنسانيته، ولا من حيث المظهر بل في الجوهر، محققين بذلك توازنًا متناغما مع تراثهم»[1].

لم يعد هناك للعرب طريق يسلكونه سوى الإذعان لغلبة الحضارة الغربية والقطع مع تراثهم الديني أو تذويبه في الكل الحضاري الغربي والإقرار بأفول الحضارة الإسلامية حسب (لويس). وهذا يمثل، بلاشك، طموحًا غربيًّا وصهيونيًّا، لأنَّه يسهل كثيرا تأبيد التبعية العربية للغرب وتحقيق الاطمئنان بعدم خروجه عليه ومباشرة بناء الذات العربية والإسلامية من جديد.

غير أنَّ فلسفة التاريخ تقول شيئًا آخر وهي تؤكد أنَّ لكل حضارة عمر معين. وهي مثل الإنسان تنشأ وتشب وتكبر وتترهل وتموت. فـ ﴿**لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٤] كما يؤكد القرآن الكريم. والحضارة الغربية ذات العمق المركب بين اليهودية المسيحية والإلحاد ليست استثناءً من ذلك. وكما انتهت غيرها من الحضارات لا بد لها أن تنتهي هي الأخرى يومًا.

لم يغير لويس رأيه في كتاباته الكثيرة اللاحقة، بل اتهم العرب جميعًا بأنَّهم معادون للحداثة الغربية ويشعرون بالغيرة والحسد للغرب في

1 - Bernard lewis & Buntzie Ellis Churchill: Arab in History, pp. 52 -53.

منجزاتــه العلميــة والحضارية والرغبــة المتجذرة في تدمــيره. وفي كتابه «الخطأ الذي حصل» (٢٠٠٢) وكتابه «أزمة الإسلام» (٢٠٠٣)، برر سلوك الولايــات المتحدة تجاه العرب بعداء العرب والمســلمين للحداثة الغربية وعدم قابليتهم للحكم الديمقراطي والأخلاق الديمقراطية.

ولاشك أنَّ هذا الاتهام يســتبطن موقفًا عنصريًّا يرى عدم قابلية العرب للديمقراطية أزلاً وأبدًا بشــكل طبيعي. صحيح أنَّ العرب يعيشــون تحت الاســتبداد منذ قرون، لكنهم ليسوا وحدهم في ذلك. وفي فترات تاريخية مختلفــة كان هنــاك حكم عادل وحر كما هي تجربــة النبي محمد والإمام علي صلــوات الله عليهما. وهي فترات تتجاوز بكثير الحكم الديمقراطي الغــربي القائم على توجيه الرأي العــام وخداعه، حيث كانت حرية التعبير والاعتقــاد مكفولــة والعدالة قيمة أساســية. والإســلام يتضمن في جوهره آليــات حكم عادل وحــر يُحَرم الظلم والإكراه ويعطــي كل ذي حق حقه. ولعل المشكلة أنَّ العرب، مثل سائر الشعوب، لم يرتقوا ثقافيًّا ومعرفيًّا إلى مستوى أن يحكمهم رجل عادل وحكيم وحر.

يعاني العرب الحكم الاســتبدادي منذ قرون، لكــنَّ ذلك لا يعني أنَّهم لا يســتطيعون تقبل الحكــم العادل والحر، فالغرب نفســه قبْــل أن يطبق ديمقراطيــة، يتفق كثير مــن الباحثــين والمفكرين أنها ديمقراطية شــكلية تخفي نقيضها بما أنَّ طبقة الرأسماليين الكبار هي التي تسيطر على الحكم فيــما يعرف بنفوذ الدولة العميقة، كان يخضع بدوره لحكم اســتبدادي فج

لعله أكثر فظاعة بكثير من الاستبداد العربي. فالديكتاتوريات التي ظهرت في الغرب أسوأ بكثير من أية ديكتاتوريات أخرى. وهي التي تسببت في الحروب الاستعمارية والحروب الأهلية في أوروبا وأمريكا وهي التي قتلت في الحربين العالميتين أكثر من مئة مليون شخص. وعندما يضرب مثل في الحكم الديكتاتوري فإن أسماء مثل)نيرون(و)هتلر(و)ستالين(أول ما يطفو إلى السطح..

تساءل (لويس) الذي يطلق عليه أصدقاؤه «بطريرك الإسلام» بسبب اهتمامه به: لماذا يكرهوننا؟ وهو السؤال الذي كرره (جورج بوش الابن). وأجاب بأنَّ التاريخ العربي استبدادي معادٍ للديمقراطية، وهم ينظرون للغرب الذي يكرهونه بطريقة مختلفة.

وفي مذكراته التي أصدرها سنة ٢٠١٢ تحت عنوان «تأملات مؤرخ متخصص في الشرق الأوسط»، يؤكد على هذه النظرة للعرب المعاصرين. ففي رأيه يختلف النظام السياسي والقيمي للعرب اختلافًا واضحًا عن نظيره في الغرب. ومن ثمَّ فإنَّ فرض الديمقراطية عليهم سيكون كارثيًّا.

والحقيقة أنَّ ما يفعله الغرب ليس نشر الديمقراطية، بل فرض ديكتاتوريات وإفشال أي توجه لحكم ديمقراطي. فالديمقراطية تعني مجيء «إسلاميين» وهو شيء لا تريده أمريكا ولا «إسرائيل». وهذا الأمر بدا واضحًا في تونس ومصر بعد ٢٠١١. والخوف ليس من معارضتهم السياسية للغرب، فهم في الحقيقة لا يعادونه، بل من توجهاتهم الدينية

التي لا يريد الغرب أن تتوسع داخل المجتمعات.

كان (لويس) في شبابه عميلاً للمخابرات البريطانية ثمَّ ارتبط بعد ذلك بالسياسيين الغربيين الذين لا يخفون توجهاتهم الصهيونية وأجنداتهم في خدمة المشروع «الإسرائيلي» التوسعي في المنطقة العربية. ولاشك في تأثير ذلك على تفكيره فضلاً عن كونه يهوديًّا مؤمنًا بالصهيونية. وهذا متوقع بسبب العلاقة الجدلية بين السياسيين الغربيين و«الإسرائيليين».

ثَالِثًا: التَّصوِيبُ عَلَى الإِسخَاتُولُوجيَا الإِسلَامِيَّة

يصوب (برنارد لويس) على الإسلام في رؤيته التي تعكس موقفًا استشراقيًّا نمطيًّا، ولا ينفي عنه صفات التطرف والإرهاب والكراهية تجاه الآخر. وهو يتحدث عن «جذور السخط الإسلامي» داخل الإسلام ذاته وليس في أفكار الذين ادَّعوا الانتساب إليه وممارساتهم، فيقول: «وعلى شاكلة غيره من الأديان، فقد عرف الإسلام فترات، نضَجت فيها روح الكراهية والعنف في أتباعه، ومن سوء حظنا فإنَّ جزءًا من العالم الإسلامي -ليس كله بل ولا يشكل الأغلبية- لا يزال يرزح تحت وطأة الميراث، وغالبية هذه الكراهية والعنف، وليس كلها، موجهة ضدنا في الغرب»[1].

---

١ - برنارد لويس وإدوارد سعيد: الإسلام الأصولي في وسائل الإعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية، ص١٠-١١.

ويضيف في المقالة نفسها: «يجب أن يكون واضحًا الآن أننا نواجه تيارًا وحركة يتجاوزان بكثير مستوى القضايا والسياسات والحكومات التي تلاحقهما. إنَّ هذا ليس شيئًا أقل من صراع الحضارات. إنَّه رد فعل، ربما غير عقلاني، لكنَّه تاريخي لمنافس قديم موجه ضد الميراث اليهودي المسيحي، وضد حاضرنا الراهن، وضد امتدادهما العالمي»[1].

وهذا يعني أنَّ (لويس) يُحمّل الإسلام وجزءًا من المسلمين مسؤولية ما يحدث في المنطقة العربية من حروب وفتن. فهو ينسب للإسلام روحًا عدائيةً سببت الصِدامات الطائفية والعشائرية، والحروب الأمريكية و»الإسرائيلية».

و(لويس) يثبت بذلك أنَّ صراع الغرب مع العرب خاصة يتحرك بدوافع دينية. لكنَّه لا يعترف بأنَّ الصراعات الطائفية هو من يقف وراءها من خلال صناعة الحركات الإرهابية المتطرفة، وتمويلها ورعايتها. وهذا يعني أنَّ الولايات المتحدة بشكل خاص هي من تثير الفتن وتخترع مبررات شن الحروب وتحاول تصوير ذلك على أنَّه صراع حضاري بين الشرق والغرب وأنَّ الإسلام هو الذي يثير كل تلك الكراهية تجاه الآخر.

ساهم (برنارد لويس) في قولبة المنظومة الإسلامية في إطار رؤية

---

١ - برنارد لويس وإدوارد سعيد: الإسلام الأصولي في وسائل الإعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية، ص٣٠.

الاستشراق الجديد وشمل ذلك المسألة المهدوية، معتبراً إيَّاها موضوعًا سياسيًّا وتخريبيًّا بطبيعته. فقد قال إنَّ المعتقدات المهدوية كانت تاريخيًا حافزًا للتمرد في العالم الإسلامي. وأعماله تشير إلى أنَّ الإيمان بشخصيات مثل المهدي يمكن استغلاله سياسيًّا. وهذا الأمر رغم أنه صحيح في بعض الحالات، لكنه قد يكرس النظرة الاختزالية لعلم نهاية العالم.

أثَّرت أفكار (لويس) بشكلٍ كبيرٍ على السياسة الخارجية الأمريكية، وخاصةً أثناء إدارة (بوش). وربما ساهم تأكيده على فهم الإسلام السياسي من خلال عدسة استشراقية في سوء تفسير الغرب لمفاهيم نهاية العالم الإسلامية. ويمكن رؤية هذا التأثير في كيفية نظر صناع السياسات الغربيين إلى معتقدات المهدوية فيما يتعلق بدول مثل إيران، حيث تلعب الإسخاتولوجيا الشيعية دورًا في الخطاب العام والسياسي.

يختلف التأطير الإسلامي للقضية المهدوية عن تأطير (برنارد لويس). فهي في القرآن، مسألة اسخاتولوجية محورية تحمل البشارة بالأمل والعدالة. وهذه المفاهيم ليست سياسية بطبيعتها ولا هي مرتبطة بالاضطرابات السياسية والاجتماعية، ولكنها تعاليم دينية ملهمة تحرك نحو الإصلاح وتدعو للتوافق مع التوجيه الإلهي. وتركيز (برنارد لويس) على الجوانب السياسية للمهدية يُغفل هذه السياقات اللاهوتية والروحية الأوسع.

ناقش (لويس) الإسخاتولوجيا الإسلامية، بما في ذلك العقيدة المهدوية، من خلال إطار تحليلي استشراقي مادي. وركز على كيفية تقاطع معتقدات المهدية مع الحركات السياسية. وهذا ما جعل تفسيره محاصرًا بالصور النمطية التي تختزل الموضوعات ذات الأبعاد المركبة. فأي فهم متوازن للمسألة المهدوية، يحتاج إلى التعامل مع المصادر والمنظورات الإسلامية بشكل مباشر، خارج عدسة الدراسات الاستشراقية.

المَبحَثُ الثَّالثُ: أُطرُوحَةُ (صَمويل هنتنغتون)

كتب (صمويل هنتنغتون) (١٩٢٧-٢٠٠٨) عام ١٩٩٣ مقالة حولها إلى كتاب بعنوان «صراع الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمي»، قال فيها إن الصراعات التي ستندلع بعد الحرب الباردة سوف تكون مدفوعة في المقام الأول بالاختلافات الثقافية والدينية وليس بالاختلافات الأيديولوجية أو الاقتصادية. وحدد الإسلام باعتباره أحد «الحضارات» الرئيسية التي قد تتصادم مع الغرب بسبب الاختلافات الجوهرية في القيم والحكم ووجهات النظر.

وقد مرت الآن أكثر من ثلاثة عقود على أطروحة «صراع الحضارات» منذ ظهورها. لكنها تبرهن اليوم أنَّ الغرب يحرك قواه من أجل تحقيق

مضامينهـا التي ركزت على الإسـلام والمسـلمين باعتبـاره العدو الجديد للغرب والتحدي الأكبر الذي تجب مواجهته.

أَوَّلًا: قِيمَةُ أُطرُوحَةِ الصِّرَاعِ الحَضَارِيّ

مثلت هذه الأُطروحة «مانيفسـتو» سياسيًّا أمريكيًّا لرسم شكل الحرب في السـنوات التالية لظهورهـا. فقد باشرت الولايـات المتحدة بعد ذلك شـن حروب متتالية على مناطق متعددة في العالم لكنها تركزت في منطقة الشرق الإسـلامي مثل: أفغانستان والعراق وسوريا ولبنان على نحو خاص بشـكل مباشر أو من خلال أدواتها. وهذا مثال واضح على تواطؤ المعرفة والسـلطة في الاسـتشراق الجديد، تمامًـا كما كان الأمر في الاسـتشراق التقليدي. جاءت الأُطروحة المتناسبة كليًّا مع توجهات الولايات المتحدة الأمريكيـة والقوى المهمينة داخلها، في سـياق تغيـير بوصلة الغرب، من التركيز على السـوفيات والكتلة الاشتراكية باعتبارهم العدو المباشر طوال العقود التي تلت الحرب العالمية الثانية، إلى التركيز على العالم الإسلامي باعتباره العدو التقليدي والذي يجب خنقه ومنعه من أية محاولة للنهوض والانطلاق سياسيًّا وعسكريًّا.

وهو مـن ناحية أخـرى، محاولة لتأطـير الديناميات الثقافيـة والدينية بين الإسـلام والغرب، كما هي عقيـدة المهدوية. فهي تمثل وداعًا تنظيريًّا لمرحلـة طويلة سُـميت بالحرب الباردة من أجـل الدخول في حروب من

نوع آخر باطنها ثقافي واقتصادي وظاهرها سياسي وعسكري، مسرحها العالم العربي بشكل خاص والعالم الإسلامي بشكل عام.

كانت أُطروحة (هنتنغتون) ردًّا مباشرًا على فكرة تلميذه (فرانسيس فوكوياما) (١٩٥٢-؟) حول «نهاية التاريخ والإنسان الأخير». فقد طرح (فوكوياما) في كتابه فكرة عولمة الديمقراطية الليبرالية لتصبح الشكل الغالب في أنظمة حكم العالم، بعد أن أنهى سقوط الاتحاد السوفياتي فترة الحرب الباردة، اعتبر (هنتغتون) أُطروحة (فوكوياما) قاصرة، وجادل بأنَّ صراعات ما بعد الحرب الباردة لن تكون بين الدول القومية واختلافاتها السياسية والاقتصادية، بل ستكون الاختلافات الثقافية المحرك الرئيسي للنزاعات بين البشر في السنين القادمة[١].

وإذا كان الصراع الغربي مع الكتلة الاشتراكية محكومًا بالأيديولوجيا، فإنَّ المرحلة القادمة ستحكمها الصراعات الثقافية والحضارية. ذكر (هنتنغتون) الحضارة الإسلامية من بين حضارات أخرى مرشحة لتكون الطرف الآخر للصراع، لكنَّه ركز على الإسلام باعتباره الخصم الجديد والجدّي للحضارة الغربية وقال بأنَّ «حدوده دموية وكذلك مناطقه الداخلية»[٢]، مشيرًا إلى صراعات المسلمين مع أتباع الديانات الأخرى

١ - صمويل هنتنغتون: صراع الحضارات، ص٤٢.

2 - Samuel P. Huntington: «Clash of Civilization», Foreign Affairs (1993). See: http://www.hks.harvard.edu/fs/pnorris/Acrobat/Huntington_Clash.pdf

مثـل الصراعات في الهند وباكسـتان والسـودان، وتناول مشـاكل الهجرة في أوروبا وتنامـي العنصرية ضـد المهاجرين من شـمال أفريقيا وتركيا، ومشاكل المسـلمين التركمان في الصين، وصراعات المسلمين الآذريين مع الأرمن، ولكنه حدد الصراع بأنَّه بين «العالم المسيحي» بقيمه العلمانية من جهة، و«العالم الإسلامي» من جهة أخرى[١].

ثَانِيًا: مِصدَاقِيَّةُ أُطرُوحَةِ صِرَاعِ الحَضَارَاتِ

في شهر سبتمر عام ٢٠١٣، بمناسبة الذكرى العشرين لنشر (هنتنغتون) مقالتـه، ظهـر كتاب بعنـوان «صراع الحضـارات بعد عشريـن عامًا: فيمَ أصابت مقالة صمويل هنتنغتون 'صراع الحضارات' وكيف أخطأت وكيف تبدو بعد عقدين من الزمن؟». وفي الكتاب إقرار بأنَّ المقالة التي هوجمت عنـد صدورها تبـين صحتها بعـد هجـوم ١١ سـبتمبر ٢٠٠١ واعتُبرَت مثالاً للتحليـل التنبؤي للديناميات التي اسـتخدمتها حملة «الحرب على الإرهاب» الأمريكية، كانت صائبة.

رفـض (هنتنغتون) نظرية (فرانسـيس فوكوياما) حـول «نهاية التاريخ» التـي اعتـبرت أنَّ الديمقراطيـة الليبراليـة سـتصبح الشـكل الغالب على الأنظمـة حول العالم بعـد نهاية الحرب الباردة. واعتـبر أنَّ الدول القومية

---

١ - صمويل هنتنغتون: صراع الحضارات، ص٤٤.

والاختلافات السياسية والأيديولوجية لن تكون هي محرك الصراعات بعد الحرب الباردة، بل ستترك المجال للاختلافات الثقافيَّة والحضاريَّة.

جادل (هنتنغتون) في أنَّ التصدعات الثقافية العميقة هي التي ستكون بؤرة الصراعات القادمة فالخصائص الثقافية لا يمكن تغييرها -حسب رأيه- بينما يمكن تغيير الانتماءات الأيديولوجية إذ يمكن لشيوعي مثلاً أن يصبح ليبراليا، ولكن لا يمكن لعربي أن يصبح روسيًّا.

اعتمد (هنتنغتون) بشكل كبير على برنارد لويس. وقام بوضع كيانين ضخمين، هما الإسلام والغرب، في مواجهة بعضهما بعضًا. وانتُقِد بسبب تجاهله حقيقة أنَّ الغرب ليس كتلةً واحدةً وقد مرت أوروبا بحروب داخلية كثيرة. والإصرار على اعتبار الغرب كتلة واحدة كان يعني شن حملة تطهير ضد الكيانات الصغيرة لصالح كيان واحد. لكن الغرب المسيحي اليوم، بما فيه الولايات المتحدة الأمريكية، لا يحكم نفسه وهو يكاد يكون خاضعًا بشكلٍ كامل للحركة الصهيونية العالمية، بسبب قوتها المالية وسطوتها على الطبقة السياسية، بحيث يحرم نقدها أو التشكيك في أي من مزاعمها مثل «الهولوكوست». وهذا يعني أنَّ الغرب مطالب بالاصطفاف وراء الولايات المتحدة التي تعتبر القاعدة العسكرية والاقتصادية والعسكرية الأكبر لهذه الحركة. وهذا هو معنى تأكيد الرؤساء الأمريكيين بشكل متكرر بأنَّهم صهاينة.

لاشك أنَّ المسلمين مِلل متناحرة والصراعات الطائفية فيما بينهم لا تكاد تتوقف. وداخل الطوائف والمذاهب ذاتها هناك علمانيون

وإسلاميون، وسلفيون وحداثيون، وليبراليون ومحافظون، وغير ذلك. وهذا يعني أنَّه كان يتحدث عن ضرورة توحد الغرب في وجه الإسلام الذي يتجه نحو الوحدة من خلال الانتقال المتوقع إلى المرحلة المهدوية. فرغم أنَّ (هنتنغتون) لم يذكر الإمام المهدي بشكل صريح، إلا أنَّ ما كتبه ليس معزولاً عن مخططات الدولة العميقة التي روجت للكتاب على نحو واسع. ويبدو أنَّ الغرب يتوقع المرور بمرحلة عنيفة من الصراعات قبل أن يصل إلى المرحلة التي نظر لها (فوكوياما) حول «نهاية التاريخ» وهي مرحلة سؤدد الليبرالية في العالم كله كما يزعم.

ثَالِثًا: نَقدُ أُطرُوحَةِ صِرَاعِ الحَضَارَاتِ

وصف الكاتب الفرنسي (أوليفييه روي) (١٩٤٩-؟) أطروحة هنتنغتون بالتبسيط والاختزال حيث أنَّه لا وجود في الواقع لتكتل «جيوإستراتيجي إسلامي»، مستدلاً بأنَّ معظم النزاعات في الشرق الأوسط هي بين مسلمين. ومشيراً إلى الفروقات بين «الجماعات السلفية» التي تحمل يوتوبيا أممية مثل «تنظيم القاعدة» وبقية «الحركات الإسلامية» التي تحمل مشاريع محدودة إقليميًا وقوميًّا مثل حزب الله في لبنان وحركة حماس في فلسطين[1].

---

١ - لـؤي المدهون، عرض لكتاب الباحث الفرنسي أوليفر روي «الحرب الخاطئة»، ترجمة رائد الباش، موقع قنطرة، ٢٠٠٩.

وانتقد (نعوم تشومسكي) (١٩٢٨-؟) بدوره فكرة هنتنغتون وقال إنه تجاهل مصدر الأيديولوجيا السلفية، التي لا توجد معها صراعات، لأنَّ الغرب هو من صنعها وحولها من جماعات هامشية إلى حركات متطرفة ومؤثرة في الدول ذات الأغلبية المسلمة. إذ لا مشكلة لدى واشنطن في التطرف والأصولية مادام النفط يتدفق إليها من الدولة التي تمول الأيديولوجيا الوهابية نفسها[1].

جعل هنتنغتون الإسلام عدوًّا جديدًا للغرب. وهذا لا يمكن إنكاره من خلال ما جرى خلال العقود الماضية في المنطقة العربية ومن خلال تصريحات مسؤولين أمريكيين مثل وزيرة الخارجية السابقة غونداليزا رايس حول الفوضى الخلاقة واتهام الرئيس الأمريكي دونالد ترامب سلفة باراك أوباما بصناعة "تنظيم الدولة" المعروف اختصارا بـ "داعش". فالعدو الجديد والمباشر للغرب هو الإسلام، أما الوسائل المستخدمة لمحاربته فعديدة ومتنوعة ومنها صناعة حركات تكفيرية وإرهابية لتكون وكيلة عنه في أداء بعض المهمات. لا توجد لدى واشنطن مشكلة في التطرف، طالما أن النفط يتدفق إليها، فهي التي أحيته ونشرته. فضلاً عن أنَّ الأنظمة التي تموله في المنطقة حليفة لها.

لم يناقش (هنتنغتون) مسألة المهدوية بشكل مباشر في أعماله، لكن

1 - Noam Chomsky: Jean Drèze; Democracy and Power, p91.

تصويره للإسلام باعتباره «تحديًا» للحضارة الغربية يحيل بالضرورة إلى المهدوية باعتبارها حركة مفصلية في علم نهاية العالم، وبما هي المُعبِّر الحقيقي عن مفاهيم الإسلام في سياق الصراع النهائي بين رموز الخير ورموز الشر.

ومن الناحية الدينية، ترتبط المهدوية بظهور الإمام المنقذ في نهاية الزمان. والحركات السياسية والاجتماعية التي تقاوم النفوذ الغربي، تتحدث عن ذلك في كثير من الأحيان. وهذا ما جعل (هنتنغتون) يعتبر الإسلام «حضارة متضاربة». فهو لا يتمكن من فهمه انطلاقًا من نصوصه التأسيسية وإنَّما من خلال التنوعات المذهبية والتقاطعات الحركية التي تنسب نفسها إليه.

نظر هنتنغتون للمهدوية باعتبارها رمزًا للمقاومة التاريخية والتي حاول كثيرون الانخراط فيها لجَمعِ الناس من حولهم في مواجهة الاستعمار والتدخلات الأجنبية. وهو يفسر هذه الحركات السياسية باعتبارها مظاهر «للتحدي الإسلامي» الأوسع الذي نظّر له.

والإطار الذي تبناه (هنتنغتون)، وكان يرى في الإسلام والغرب قوتين متعارضتين بشكل أساسي، قد يسيء تمثيل الجوهر الروحي والإصلاحي لدور الإمام لمهدي في علم نهاية الزمان أو الاسخاتولوجيا الإسلامية، كما بات يعرف، ويركز بدلاً من ذلك على إمكاناته في الصراع الجيوسياسي.

اعتبرت أُطروحة (هنتنغتون) المسلمين وجودًا حضاريًّا متجانسًا

وتجاهلت التنوع في داخلهم، بما في ذلك تنوع تفسيراتهم لشخصيات مركزيةٍ مثل الإمام المهدي عليه السلام. وهي تركز على الصراع بدلاً من التعاون بين الحضارات ما يقلص المعتقدات الإسخاتولوجية إلى مجرد أدوات سياسية، ويهمش أبعادها اللاهوتية والروحية. ويبدو أنَّ هنتنغتون لم يكن بصدد الدخول في التقاطعات المذهبية والسياسية بين المسلمين بقدر ما كان يريد تناول الجوهر الإسلامي في أحد أهم معتقداته المتعلقة بنهاية الزمان.

يتوافق تأطير (هنتنغتون) مع وجهات نظر الاستشراق الجديد، حيث يُنظَر إلى المعتقدات الإسلامية، بما في ذلك تلك المتعلقة بالإمام المهدي، على أنها غير متوافقة مع فكر الحداثة أو المعايير الغربية، سواء كانت دينية أو إيديولوجية، مما يحيل إلى استمرار الصور النمطية التي صنعها الاستشراق القديم عن الإسلام. وهو يهمل حقيقة أنَّ الحداثة لا تمثل الكمال، وهي ترفع شعارات لقيم نوعية، بينما تقدم في الواقع شيئا مختلفا يخاطب الغرائز ويهمش العقول.

ليس الإمام المهدي كما يصوره الاستشراق الجديد شخصية عنيقة ومحاربة، في مقابل شخصية المشيح أو ما يطرحه العالم الغربي من شعارات حول الأمن والسلام والديمقراطية. فنحن لا نرى سلامًا في أغلب المناطق التي يسجل فيها الغرب حضورًا. وهذا يعني أنَّ الإمام المهدي خارج عدسة (هنتنغتون) هو رجل السلام والعدالة كما تصفه النصوص

الإسلامية. والحرب التي سيخوضها -في بداية ظهوره، وتؤكد النصوص الإسلامية أنها ستكون سريعة وخاطفة- مجرد وسيلة لتحقيق ذلك.

لكنَّ ولادة هذا «الدين الجديد»[1] تحتاج إضافةً إلى فشل المنظومات الحاكمة وإلى وجود الكتلة المؤيدة التي تحمل على عاتقها مهمة التغيير. وهنا تأتي الأُطروحة المهدوية التي يبشر بها الإسلام لتحقق ذلك.

لقد طرح)فوكوياما(فكرة نهاية التاريخ التي تحيل إلى انتصار الليبرالية وتعميمها في العالم بعد سقوط الشيوعية. لكنَّ الليبرالية حكمت طوال أكثر من ثلاثة قرون، ولم تحقق للإنسانية أهدافها في العدالة والحرية والسلام والرخاء، حيث أنَّ الجزء الأكبر من الثروة العالمية تحتكرها أقلية قليلة والعلم مغشوش والمرض يتوسع والأزمة الأخلاقية غير مسبوقة والحروب تُفرخ بعضها بعضًا دون توقف. وهي اليوم تواجه خطر الانهيار الشامل.

أكد القرآن أنَّه الرسالة الخاتمة المنقذة للإنسانية، وقال إن الله أراد خلال كل القرون التي مرت أن يعطي الفرصة للمنظومات الأخرى كي تحكم

---

١ - تصف الروايات الإسلامية المنظومة الجديدة التي يأتي الإمام المهدي عليه السلام بـ«الدين الجديد» و«الأمر الجديد» و«الكتاب الجديد». والحقيقة سيراه الناس كذلك بينما هو شيء لا يختلف عن النسخة الأصلية للإسلام والتي غيبتها التلاعبات والرؤى والاجتهادات والمذاهب المختلفة. عن الباقر عليه السلام: «يقوم القائم بأمر جديد، وكتاب جديد، وقضاء جديد، على العرب شديد». النعماني: الغيبة، ٢٣٦.

وتبرهن على فشلها، وبتعبير الإمام علي: «يا بُنـي إنَّ للقوم مدة يبلغونها، وإنَّ هـذه راية لا ينشرها بعدي إلا القائم صلوات الله عليه» وقد قال ذلك للحسـن: «لما كان يوم صفين سألوه نشر الراية فأبى عليهم فتحملوا عليه بالحسن والحسين عليهما السلام وعمار بن ياسر»[١].

وهـذا ما أكـده الإمام الصادق في نص آخر حيث قـال: «ما يكون هذا الأمـر حتى لا يبقـى صنف من النـاس إلا وقد وُلوا عـلى الناس حتى لا يقـول قائل: إنَّا لو وُلينا لعدلنـا، ثم يقوم القائم بالحـق والعدل»[٢]. وهذا الحكم القائم على تعاليم الإسلام ومنظوماته السياسية والثقافية والأخلاقية والاقتصادية والتشريعية هو وحده الذي تؤكد النصوص أنه سيحقق العدل والسـلام والرخـاء. تحتاج الإنسـانية شـيئين لتتحرك في طريق مسـتقيم؛ الأول، هـو النظريـة الصالحة والثاني، هو القيادة الراشـدة، وهذا شيء لا وجود له خارج الإسلام.

يحتاج طـرد المحتلين في المنطقـة العربية والإسـلامية مقاومة قوية، ومن دون ذلك لا يتحق السـلام ولا العدالـة ولا الرخاء. والإمام المهدي هو شـخصية التحرير والتجديد والعدالة والمساواة، وهو محور الأمل في التدخل الإلهي في عالم مشوه بالقمع والظلم. وهو القادر على فعل ذلك.

---

١ - النعماني: الغيبة، ص٣١٧.

٢ - النعماني: الغيبة، ص٢٨٠.

وقد بشر الإمـام علي بذلك عندما قال لعباية الأسـدي: «لأخرجن اليهود والنصارى من كل كور العرب ولأسوقن العرب بعصاي هذه، قال (عباية): قلـت له: يا أمير المؤمنـين كأنك تخبر أنك تحيى بعـد ما تموت؟ فقال: هيهات يا عباية ذهبت في غير مذهب يفعله رجل مني»[1].

لا تتعلـق المهدوية بطبيعتها بمقاومة الاحتلال والتوقف عند ذلك، بل إنها تتجـاوزه إلى طموح عالمي للعدالة يتجاوز الانقسـامات الحضارية. والمهدويـة لا ترمز -على النقيض من رؤية (هنتنغتون)- إلى الصراع المرير والطويل، فالنصوص الإسلامية تؤكد أنَّ حروبه وانتصاراته ستكون سريعة ولن تسـتمر سـوى عدة أشـهر. ينجح خلالها في إنهاء النفوذ الغربي -لو قدّرنـا أننا نعايش تلك المرحلة- وإخـراج المحتلين من اليهود والنصارى كما تسـميهم الرواية السـابقة، وهو ما قد يكون إشارة إلى تفكيك الوجود الصهيـوني وتوحيد العرب والمسـلمين ضمـن إطار سـياسي واحد، ثم الانتقـال إلى مرحلة بناء الإنسـان علميًّا وإيمانيًّا وأخلاقيًّـا بعد أن دمرت ذلـك فيه الحضارة الغربية من خلال نـشر أيديولوجيات المادية والإلحاد وممارسـات الاضطهاد والقمع وتحريك أجندات التجهيل والغواية. تمثل المهدويـة جسرًا إلى العدالة الإلهية والسـلام، وهو مـا يتناقض مع تأكيد (هنتنغتون) على الصراعات الحتمية والطويلة.

---

١ - المجلسي: بحار الأنوار، ج٥٣، ص٦٠.

ليست المهدوية رمزًا للصراع الدائم بين الحضارات، بل إنَّه على الأصح رمز للتغيير الجذري والشامل والخاطف. وكما أنَّه ينجح في نقل العرب والمسلمين من حالة مدمرة من التقاتل والتناحر والهبوط والتيه، ينجح أيضًا في انتشال العالم الغربي وبقية العوالم الأخرى من الوثنية والإلحاد والمادية والظلم والفقر والبؤس والتصحر الروحي والأخلاقي. فقد وعدت النصوص الإسلامية في القرآن والسنة المؤمنين بالنصر واستلام الأرض وحكمها تحت قيادة الإمام المهدي الذي ادخرته الإرادة الإلهية لتلك الأيام.

وبشكل عام، يتفق)برنارد لويس(و)صمويل هنتنغتون(في اعتبار الإسلام العدو الجديد القديم للغرب. ومن الضروري التركيز على مواجهته بكل الوسائل المتاحة، حيث لا وجود للمحرمات في الثقافة الغربية. وهما يفهمان أنَّ التحدي المستقبلي الأكبر للغرب والحركة الصهيونية سيكون في ظهور الشخصية المهدوية المنتظرة والقادرة على مواجهة الغرب وهزيمته.

ولأجل ذلك، تم الاشتغال على هذه العقيدة في مستويين: الأول؛ هو التشكيك في وجود الإمام المهدي بل وإنكار ذلك بشكل مباشر واعتباره مجرد خرافة وأسطورة، مما يجعل الوعي النخبوي خجولا من معتقدات مجتمعه، ويحركه تبعًا لذلك في خط الترويج لأفكار الاستشراق، وهذا مهم لتقليل عدد أنصار الحركة المهدوية عندما يحين وقت ظهورها. والثانية؛

اعتبار المهدوية فكرة خيالية استخدمتها الحركات الدينية من أجل جذب الناس وجمعهم حولها، فهي أداة تجييش وليست حقيقة دينية. وقد تبين أنَّ العقيدة المهدوية جزء أصيل من معتقدات الإسلام وأنها تمثل الأمل في النصر والعدالة والسلام التي وعد بها المؤمنون في نهاية الزمان. وما يقوله المستشرقون والذين يتفقون معهم في ذلك لن يغير في خط المستقبل ولا في الحقائق التاريخية شيئًا.

خاتمة

لم يكـن التشـيع ومعتقداتـه الخاصـة بالإمامـة والمهدويـة غائبا في الدراسـات الاسـتشراقية التقليدية والجديدة. وهو شيء يجد مبرره معرفيًّا وأيديولوجيًّا وسياسـيًّا في الإسـتراتيجيات الغربية المتغيرة في تعاملها مع العالم الإسلامي.

وإذا كان الاستشراق التقليدي يهتم بدراسة الإسلام والتراث المرتبط به، فإنَّ الاسـتشراق الجديد يمثل امتدادًا طبيعيًّا له رغم اختلافه عنه في أدواته التحليليـة التي تجمع بـين العلوم الاجتماعيـة والأنثروبولوجيا والتاريخ، بعد أن تخلى عن المناهج الفيلولوجية التي طالما تمسَّـك بها الاستشراقي التقليدي.

ركّـز الاسـتشراق التقليدي على الجوانـب المعرفية للتشـيُّع من أجل اسـتخدامها في التعامـل مـع الشـعوب العربيـة والمسـلمة. بينـما ركز الاسـتشراق الجديد على الأبعاد السياسـية والاجتماعيـة ليؤكد أنَّ قضايا التشـيُّع المرتبطة بعلم نهاية الزمان مثل قضية الإمام المهدي ليست مجرد فكـرة دينية غيبية، بل إنَّها تحمـل أبعادًا اجتماعية وسياسـية ومن خلالها تتم دراسـة دور العقيدة المهدوية في صياغـة الهوية الجماعية والمواقف السياسية، خاصة في المجتمعات التي تعاني من الظلم أو الاحتلال.

وكما فعل الاستشراق التقليدي، يقارن المستشرقون الجدد بين عقيدة المهدي في التشيُّع وبين أفكار مشابهة في ديانات وثقافات أخرى. فيُنظر إلى فكرة «المخلّص» على أنها ظاهرة كونية تعكس حاجات إنسانية عميقة للخلاص والعدل، وليست خاصة بالإسلام وحده. وهم يزعمون أنَّ الأُطروحة المهدوية ليست أصيلة في الإسلام بل إنَّها واردة من فضاءات دينية أخرى. وما لم يقله الاستشراقي هو أنَّ المهدوية بشارة نبوية نجدها في كل رسالات التوحيد، وهي لذلك تحيل إلى حضورها العميق في الوجدان الإنساني والتَّوق إلى ما تمثله من عدالة وخير حرية يفتقدها الناس.

لم يتوقف الاستشراقي الجديد عن دراسة النصوص الدينية والتاريخية كالأحاديث والروايات التي تتحدث عن الإمام المهدي، بطريقة نقدية، لكن تركيزه كان منصبًّا على الجوانب الاجتماعية والسياسية. وهو ما نقرأه لدى (برنارد لويس) و(ريتشاردسون) مثلاً، حيث تكرر الحديث القديم حول تاريخية النصوص، والسياقات التي كُتبت فيها، ومدى تأثرها بالصراعات السياسية والطائفية عبر التاريخ الإسلامي.

يُبرز الاستشراق الجديد كيف استُخدمت فكرة المهدي في الحركات السياسية المعاصرة، سواء من قبل حركات المقاومة الاحتلال والاستعمار والاستبداد أو الجماعات التي تدّعي ارتباطها بالمهدوية. ويحاول الباحثون تفسير كيف يمكن لفكرة غيبية أن تتحول إلى قوة اجتماعية مؤثرة.

وفي هذا السياق جاءت بعض الأُطروحات الجديدة عن "نهاية التاريخ»

و»صراع الحضارات» من اجتراح أساليب جديدة لمواجهة الإسلام في قوته الدافعة كما هي صناعة حركات تكفيرية وإرهابية تخلق الفوضى وتمارس القتل من أجل تبرير تدخل القوات الغربية والأمريكية بشكل خاص.

ورغم الكمّ الهائل من الدراسات الاستشراقية الجديدة، التي تسعى لتفسير المفاهيم الإسلامية، إلا أنَّها تبقى قاصرة بسبب رؤيتها البرانية التي لا يمكنها النظر لقضية المهدوية من الداخل، ولجوئها إلى عدساتها الغربية ذات البعد المادي الأحادي. وبشكل عام يحاول الاستشراق الجديد تقديم رؤية مختلفة لقضية الإمام المهدي، إلا أنَّه لم يبرهن على قدرة حقيقية على فهم حقيقة هذه العقيدة بسبب طبيعته التحليلية الجافة التي تتجاهل البعد الإيماني والروحي لها، وبسبب الأبعاد السياسية لقراءاته.

المَصَادِرُ وَالمَرَاجِعُ

القرآن الكريم

■ أحمد الحراني (ابن تيمية): مجموع فتاوى ابن تيمية، دار الوفاء للنشر، المنصورة-مصر، ط٣، ٢٠٠٥.

■ أحمد بن علي (الطبرسي): الاحتجاج، النجف الأشرف- العراق، مطابع النعمان، ط١- ١٩٦٦م.

■ أحمد بن محمد (ابن حنبل): مسند أحمد، القاهرة: مؤسسة قرطبة، د.ت.

■ أحمد بن محمد (الثعلبي): الكشف والبيان عن تفسير القرآن، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت.

■ إغناس غولدتسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة: محمد يوسف وآخرون، القاهرة: دار الكاتب المصري، ط١، ١٩٤٦م.

■ الأندلسي (ابن الأثير): البحر المحيط في التفسير، بيروت، دار الفكر، د. ت.

■ الأندلسي (ابن حزم): علي بن أحمد، الفصل في الملل والأهواء والنحل، بيروت، دار الجيل، ط٢- ١٩٩٦م.

■ إيليا باولويج بطروشوفسكي: الإسلام في إيران، ترجمة محمد

السباعي، دار الثقافة، القاهرة، ط١، ١٩٨٢.

■ برنارد لويس وإدوارد سعيد: الإسلام الأصولي في وسائل الإعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٤.

■ برنارد لويس: العرب في التاريخ، تعريب: نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد، بيروت: دار العلم للملايين، ط١- ١٩٥٤.

■ ج. فان فلوتن: السيادة العربيّة والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، القاهرة: مطبعة السعادة، ط١- ١٩٣٤م.

■ جواد علي: المهدي المنتظر عند الشيعة الاثني عشرية، بيروت: منشورات الجمل، ترجمة: أبو العيد دودو، ط٢- ٢٠٠٧م.

■ الحسن بن موسى (النوبختي): فرق الشيعة، بيروت: منشورات الرضا، ط١- ٢٠١٢م.

■ حسن حنفي: التراث والتجديد، بيروت، المؤسسة الجامعية للنشر، ط٥- ٢٠٠٢م.

■ حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، القاهرة، الدار الفنية للنشر والتوزيع، ط١- ١٩٩١م.

■ خزعل الماجدي: الحضارة الهندية، بيروت، الرافدين للنشر والتوزيع، ط١- ٢٠١٩م.

■ دوايت دونالدسن، عقيدة الشيعة، القاهرة: ط١- ١٩٤٦م.

■ دومينيك سورديل: الإسلام، ترجمة خليل الحر، المنشورات العربية،

رقم ٨، باريس، د. ت.

■ سـليم بن قيس (الهلالي): كتاب سليم بن قيس، تحقيق محمد باقر الأنصاري الزنجاني، مطبعة الهادي، قم-إيران، ١٤٢٠هـ.

■ سليمان بن خوجه إبراهيم (القندوزي الحنفي): ينابيع المودة لذوي القربى ،تحقيق: سـيد علي جمال أشرف الحسـيني، دار الأسـوة للطباعة والنشر، ط٢، ١٤١٦هـ.

■ صمويل هنتنغتون: صراع الحضارات (اعادة صنع النظام العالمي)، ترجمة طلعت الشايب، مؤسسة هنداوي، يورك هاوس-المملكة المتحدة، ٢٠١٧.

■ صمويل هنتنغتون: صراع الحضارات، مجلة فورين أفيرز، ١٩٩٣.

عبد العزيز بن عبد السـلام (السلمي الشافعي)، بيروت، دار ابن حزم، د. ت.

■ عبد الله بن محمد (ابن أبي شيبة): المُصنّف، تحقيق محمد عوامة، دمشق، مؤسسة علوم القرآن، ط١-٢٠٠٦م.

■ عبد علي بن جمعة (الحويزي): تفسير نور الثقلين، المطبعة العلمية، قم- إيران، ط ٢- ١٣٨٣هـ.

■ عـلي الكوراني: معجم أحاديث الإمام المهدي، مؤسسـة المعارف الإسلامية، قم-إيران، ط١، ١٤١١ هـ. ق.

■ علي بن الحسـين (المرتضى): الفصول المختارة، المؤتمر العالمي

لألفية الشيخ المفيد- قم- إيران: مؤسسة الإمام الصادق، ط١- ١٤١٣هـ.

■ عمر بن علي (ابن عادل): اللباب في علوم الكتاب، بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت.

■ غارهارد كونسلمان: سطوع نجم الشيعة، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط١- ٢٠٠٤م.

■ غارهارد كونسلمان: سطوع نجم الشيعة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤.

■ فخر الدين محمد بن عمر (الرازي): مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د. ت.

■ فرات بن إبراهيم الكوفي: تفسير فرات الكوفي، طهران-إيران، ط١- ١٩٩٠م.

■ القاضي النعمان (ابن حيون): دعائم الإسلام، دار الأضواء، بيروت، ط١، ١٩٩١.

■ لؤي المدهون: عرض لكتاب الباحث الفرنسي أوليفر روي «الحرب الخاطئة»، ترجمة رائد الباش، قنطرة، ٢٠٠٩.

■ محمد الخضر حسين: موسوعة الأعمال الكاملة للشيخ محمد الخضر حسين، منشور على المكتبة الشاملة الإلكترونية.

■ محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١- ١٩٨٣م.

■ محمد بن أحمد (الخطيب الشربيني): السّراج المُنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربّنا الحكيم الخبير، القاهرة: مطبعة بولاق (الأميرية)، د. ت.

■ محمد بن أحمد الأنصاري (القرطبي): الجامع لأحكام القرآن، القاهرة: دار الكتب المصرية، د. ت.

■ محمد بن إسماعيل (البخاري): صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، بيروت، دار طوق النجاة، ط١- ١٤٢٢هـ.

■ محمد بن الحسن (الطوسي): الغيبة، قم- إيران، مؤسسة المعارف الاسلامية، ط١- ١٤١١ هـ. ق.

■ محمد بن بن إبراهيم (النعماني): الغيبة، تحقيق: فارس حسون كريم، أنوار الهدى، ط١، ١٤٢٢هـ.

■ محمد بن رسول (البرزنجي): الإشاعة لأشراط علم الساعة، بيروت، دار المنهاج، ط٣- ٢٠٠٥م.

■ محمد بن علي الصدوق (ابن بابويه): إكمال الدين وتمام النعمة، قم-إيران، مؤسسة النشر الإسلامي، ط١- ١٤٠٥هـ.

■ محمد بن علي الصدوق (ابن بابويه): الخصال، قم- إيران، منشورات جماعة المدرسين، ط١-١٤٠٣هـ.

■ محمد بن يعقوب (الكليني)، الكافي: طهران، دار الكتب الإسلامية، ط١، ١٣٨٨ هـ. ق.

■ محمد بن يوسف (أبو حيان الغرناطي): البحر المحيط في التفسير، بيروت، دار الفكر، د. ت.

■ محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، القاهرة، دار المعارف، د. ت.

■ محمود شهاب الدين أبو الثناء (الآلوسي): تفسير رُوح المعاني، دار الكتب العلمية، بيروت: د. ت.

■ مراد هوفمان: الإسلام كبديل، ترجمة غريب محمد غريب، الكويت: مجلة النور- مؤسسة بافاريا، ط١، ١٩٩٣م.

■ مسلم بن الحجّاج (النيسابوري): صحيح مسلم، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١- ١٤١٢هـ- ١٩٩١م.

■ نظام الدين الحسن بن محمد (النيسابوري القمي): غرائب القرآن ورغائب الفرقان، بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت.

■ نعيم بن حماد (المروزي): الفتن، القاهرة: مكتبة التوحيد، ط١- ١٩٩١.

■ هاينس هالم: الشيعة، ترجمة: محمد كبيبو، بيروت، الورق للنشر، ط١- ٢٠١١م.

■ هنري كوربان: الشيعة الاثنا عشرية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤.

■ هنري ماسيه: الإسلام، دار عويدات للنشر، بيروت، ط١، ١٩٦٠.

■ يوسف بن يحي (المقدسي الشافعي): عقد الدرر في أخبار المهدي المنتظر، الزرقاء- الأردن، مكتبة المنار، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.

■ يوليوس فلهاوزن: الخوارج والشيعة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة، القاهرة، ط١، ١٩٥٨.

■ Bernar Lewis & Buntzie Ellis Churchill, Arrow edition, London, 1958.

■ James Darmesteter, The Mahdi Past and Present, 1st Edition, NY- USA, 1885.

■ Noam Chomskyé & Jean Drèze, Democracy and Power,The Delhi Lectures, Open Book Publishers, 2014, p91.

■ New Catholic Encyclopedia, Second Edition, USA, Volume9, 2002.

الفهرس

٥ مقدمة

٩ الفَصْلُ الأَوَّلُ: فِي مَفهُومِ الإِمَامَةِ

١٣ المَبحَثُ الأَوَّلُ: مَاهِيَّةُ التَّشَيُّعِ

- أَوَّلًا: جُذُورُ التَّشَيُّعِ ١٤
- ثَانِيًا: جَوهَرُ التَّشَيُّعِ ٢٣
- ثَالِثًا: التَّشَيُّعُ وَالسِّيَاسَةُ ٢٧
- رَابِعًا: حَدِيثُ الغُرَبَاءِ ٣٠

٣٣ المَبحَثُ الثَّانِي: الإِمَامَةُ وَالوِلَايَةُ

- أَوَّلًا: خَصَائِصُ الإِمَامَةِ ٣٤
- ثَانِيًا: ضَرُورَةُ الإِمَامَةِ ٣٨
- ثَالِثًا: الإِمَامَةُ وَالعِصمَةُ ٤١
- رَابِعًا: بَشَرِيَّةُ الإِمَامِ ٤٣
- خَامِسًا: عِلمُ الإِمَامِ ٤٨
- سَادِسًا: وِلَايَةُ الإِمَامِ ٥٠
- سَابِعًا: الإِمَامُ الأَخِيرِ ٥٣

٥٧ الفَصْلُ الثَّانِي: صُورَةُ المَهدَوِيَّةِ فِي السَّرديَّةِ الاِستِشرَاقِيَّةِ

٦٠ المَبحَثُ الأَوَّلُ: جُذُورُ المَهدَوِيَّةِ فِي الاِستِشرَاقِ اليَهُودِيّ

- أَوَّلًا: التَّشكِيكُ فِي أَصَالَةِ العَقِيدَةِ المَهدَوِيَّةِ ٦٠
- ثَانِيًا: إِنكَارُ الحَقِيقَةِ المَهدَوِيَّةِ ٦٦

٧١ المَبحَثُ الثَّانِي: الاِستِشرَاقُ المَسِيحِيُّ وَالوُجُودُ المَهدَوِيُّ

- أَوَّلًا: الوِلَادَةُ المَهدَوِيَّةُ ٧٢
- ثَانِيًا: حَقِيقَةُ المُصَاهَرَةِ ٧٤
- ثَالِثًا: الغَيبَةُ الصُّغرَى وَالسُّفَرَاءُ الأَربَعَةُ ٧٦

٨٤ المَبحَثُ الثَّالِثُ: المَهدَوِيَّةُ فِي القُرآنِ

- أَوَّلًا: المَهدَوِيَّةُ فِي التَّفَاسِيرِ السُّنِيَّةِ ٨٥
- ثَانِيًا: المَهدَوِيَّةُ فِي التَّفَاسِيرِ الشِّيعِيَّةِ ٩١

٩٧ الفَصْلُ الثَّالِثُ: مَعَارِكُ النِّهَايَةِ وَالاِستِئنَافُ المَهدَوِيُّ

١٠١ المَبحَثُ الأَوَّلُ: (ريتشاردسون) وَتَزييف الحَقِيقَةِ المَهدَوِيَّةِ

١٠٥ المَبحَثُ الثَّاني: تَنظيراتُ (برنارد لويس)

- أَوَّلًا: منهَجُ (برنَاردْ لُويس) ١٠٦
- ثَانيًا: سِيَاقَاتُ العَقيدَة المَهدَويَّة ١٠٨
- ثَالثًا: التَّصويبُ عَلَى الإسخَاتُولُوجيَا الإسلَاميَّة ١١٤

١١٧ المَبحَثُ الثَّالِثُ: أُطرُوحَةُ (صمويل هنتنغتون)

- أَوَّلًا: قِيمَةُ أُطرُوحَة الصِّرَاع الحَضَاريّ ١١٨
- ثَانيًا: مِصدَاقِيَّةُ أُطرُوحَة صِرَاع الحَضَارَات ١٢٠
- ثَالثًا: نَقدُ أُطرُوحَة صِرَاع الحَضَارَات ١٢٢

١٣١ خاتمة

١٣٥ المَصَادِرُ وَالمرَاجِعُ

هو مركز بحثي مستقل غير ربحي، مركزه في بيروت وبغداد. ويهدف لفتح المجالات العلمية والاكاديمية الواسعة، أمام الباحثين والمتخصصين؛ للقيام ببحوث تسعى إلى فهم واقع الإنسان والإنسانية، من خلال التركيز على دراسة الميادين الفلسفية، والاجتماعية، والإنسانية المتنوعة، التي تشكّل في مجموعها ذلك الحراك الاجتماعي والإنساني الكبير، الحاصل في العالم، وخصوصا في بلادنا العربية والإسلامية؛ ورصد الظواهر والتحديات الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والنفسية المختلفة، التي يمكن أن يواجهها الفرد والمجتمع، ومحاولة فهم ومدارسة الأسس الفلسفية والإجتماعية والدينية التأصيلية بموضوعية وجدة، سعيًا للوصول إلى حلول لها؛ من أجل السمو بالإنسان وتقدّمه في أبعاده الإنسانية المختلفة.

في هذا الكتاب:

جادل الاستشراق الجديد، في مصداقية الأطروحة المهدوية، تمامًا كما فعل الاستشراق التقليدي، وذهب إلى اعتبارها مجرد أسطورةٍ واردةٍ من الديانات القديمة، تم استخدامها لتكون تعبيراً عن أزماتٍ سياسيةٍ واجتماعيةٍ عاشها الشيعة بشكل خاص بسبب ما تعرضوا من اضطهاد. فهي بالنسبة إليه مجرد آليةٍ للحفاظ على توازن المجتمعات في أوقات المحن، وهي أيضًا ذات عمق اجتماعيٍّ وثقافيٍّ مغمس بالأمل والانتظار في المجتمعات التي تعاني الاستبداد والظلم. وقد عكس هذا الموقف الاستشراقي، في عمقه المسكوت عنه، رُهابًا حقيقيًّا يتعلق بمستقبل الغرب الحضاري بعد أن اطَّلع المستشرقون على البشارات الكثيرة التي أطلقتها النصوص القرآنية والنبوية بخصوص مستقبل الإسلام والمؤمنين به. من الطبيعي أن يُنكر المستشرقون الأطروحة المهدوية ويطلقوا في شأنها ما شاءوا من الأوصاف. ومن الضروري أن تكون هناك وقفاتٌ نقديَّة لهذا الإنكار.

• الدراسة لا تعبر بالضرورة عن رأي المركز •

Baratha Center for
Studies and Research